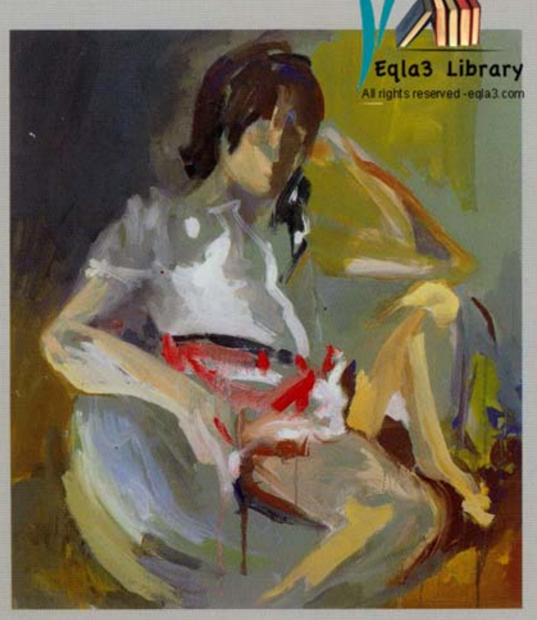
رواية

Twitter: @ketab_n
5.2.2012

فاتحة مرشيد

ketab.me

مخالب المتعة



المركز الثقافي العربي

فاتحة مرشيد

مخالبُ المُتعة

رواية



الكتاب
مخالب المتعة
المؤلف
فاتحة مرشيد
الطبعة
الثانية، 2010
عدد الصفحات : 160
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9953-68-355-7

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص .ب: 4006 (سيدنا)
٤٢ الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 212+
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص .ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01750507 - 01352826
فاكس: 01343701 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

«السعادة هي المتعة من غير ندم»

سقراط

1

أن تكون عاطلا عن العمل فأنت حتما عاطلٌ عن الحب..

عاطلٌ عن الحياة.

تهرب كل صباح من نظرات أمّ تقول في صمت: «تحرّكوا تُرزقوا». وكأن الحركة تكفي لفتح أبواب الجنة.

لا أطمع في الجنة، على الأقل ليس الآن.. ليس قبل أن أحظى بوظيفة.

صباح آخر، لا يغري بشيء..

حتى الشمس استغنت عن الشروق لتظل في عزلة عن العالم.

الأفق، مثلي، يلفه الضباب. أجرُّ الخطى نحو المقهى المعتاد، حيث الجرائد اليومية في انتظاري، أبحث فيها للمرة الألف، عن إعلانات الشغل.

كعادتي، أجلس في زاوية من المقهى بعيداً عن عيون المارة. أتحسس جيبي، أطمئن على وجود ثمن قهوة وسيجارتين بالتقسيط. مصروف تدسّه أختي كل صباح في جيب بنطلوني، تفاديا لإحراجي، قبل أن تذهب إلى صالون الحلاقة حيث تعمل في التجميل.

كعادتها، كل الإعلانات الموجهة للعاطلين تبحث عن خريجي الاقتصاد أو الإدارة أو الإعلاميات.

من ضمن الأخطاء التي ارتكبتها عن قناعة: اختيار تخصص التاريخ والجغرافيا. إيماناً مني بأن لا مستقبل بدون تاريخ، ومصير الشعوب تحدده الجغرافيا. أهراء

ما قيمة الجغرافيا، الآن، في عصر محو الحدود، حيث بإمكان كل من تعلم الضغط على الأزرار عبور كل المحيطات؟

وما نفع الجغرافيا إن لم أنجح في اختيار جغرافية تناسبني أكثر، كما فعل الذين هاجروا إلى حيث لا حياء في شغل؟

وكيف سوّلت لي نفسي الاستفادة من التاريخ، وهو «لا يسمح بأدنى دخيل، هو الذي يختار أبطاله وينسى الباقين مهما عظمت إنجازاتهم..»؟

كان أمل أسرتي فيّ كبيراً، وأنا أحصل على دبلوم الدراسات المعمّقة، وأمي تردد من حولها: «إنه ابني.. مؤرخ المملكة الجديد».

أقلّب أوراق الجريدة.. الدمار نفسه، وحدها الحروب تستفيد من التاريخ ومن الجغرافيا معاً.. وحدها الحروب تؤرخ للعالم.

صوت يخرجني من سواد الحبر:

- أمين، يا للمفاجأة!

رفعتُ عينيّ. إنه هو يبتسم لي بثقة تفرضها أناقته اللافتة للنظر. صحتُ به:

- أين اختفيت كل هذا الوقت يابّا عَزُّوزْ؟

أجاب وهو يتقدم نحوي:

- في الدنيا الواسعة يا حبيبي.

تعانقنا بحرارة الصبا الذي هدرناه معاً.

سألته بفضول وهو يأخذ مقعدا أمامي:

- ما هذه الأناقة؟

أجاب بزهو بالغ:

- أخوك دائماً أنيق وأنت ما بالك تحمل الجبال على كتفيك؟

- كما ترى أبحث في الإعلانات.. أخوك دائماً عاطل.

ضحك مقهقهاً وقال:

- ماذا لو دبّرت لك شغل معي.

- سأكون مديناً لك ما حييت.

سألته كمن لا يصدق ما يرى وقد انتبهت إلى ساعة ثمينة حول معصمه:

- ما هذا الشغل الذي يقدس التاريخ والجغرافيا إلى هذا الحد؟

أجاب وهو يشير للنادل بإحضار قهوة «نصْ نصْ»:

- لا توجد دراسة غير مجدية، المهم أن توظّف معلوماتك، وتعرف كيف توجهها التوجيه الصحيح.

- مثلا؟

- مثلاً، أن توجهها نحو تاريخ النساء وجغرافيتهن. يا سلام

على جغرافية النساء: هضاب ووديان وجبال وسفوح ومغارات.. ما كنت لتتخيلها، لا توجد في أيٍّ من المراجع التي سهرنا الليالي في ازدرادها.. يا حسرة على الزمن الضائع!

ضحكت قائلا:

- لن تتغير أبداً.. آشْ خَاصَّكْ يا الْبِطالي؟ الحُبّ يا مُولاَيْ.

- أنا لا أكلمك عن حب المراهقات، اللواتي ينتظرن منك أن تؤمّن لهن تذكرة سينما، وساندويتش ماكدونالد، مقابل رسائل حب ودموع لا تسمن ولا تغني من جوع. أنا أتكلم عن النساء الحقيقيات، صاحبات العطاءات من غير حساب.

- هل هناك من عطاء دون مقابل؟

- هناك مقابل لا يكلفك شيئاً..

أضاف موضحاً:

- أعني خارج المتعة.

لم أفهم ما يقصده، فقلت سائلاً:

- أفصح يا أخي، متعة من؟

- متعتك أنت كرجل، متعتها هي كأنثى.

- ماذا تعني؟

رن هاتفه المحمول رنتين وانقطع قاطعاً خيط حديثنا. قام مستعجلاً وهو يقول:

- هات رقم هاتفك النقال بسرعة.

- ليس لدي هاتف نقال.

ابتسم بسخرية، وضع ورقة نقدية تكفي لسداد قهوة شهر على الطاولة، وخرج قائلا:

- إنها المتعة في انتظاري، أراك غداً بعد الظهر هنا، علّك تفهم.

عبر الشارع بخفة اللاّمبالي، ثم ركب سيارة فخمة تقودها امرأة جميلة لا عمر لها.

2

جمدتُ في مقعدي أتخبّط في حيرة مما قاله عزيز.

ترى، ماذا يجب أن أفهم؟

حقا، لقد كان دائماً متفوقاً عليّ في فهم الحياة، وكنت أنا متفوقاً عليه في فهم الدروس واستيعابها.. مشكّلين ثنائياً يكمّل بعضهما البعض.

كان يعرف كيف يحصل على النقود عندما تضيق بنا الحال، وكانت المراجع من اختصاصي. كان يتنقل بثقة في بهو الجامعة، وكنت خجولاً أحتمي بالجدران. كان يحسن فن غواية الفتيات، وكنت أحسن الفرار كلما ورطني في علاقة مع إحدى الطالبات.. وكلما حاولت أن أتحدى خجلي وأتصرف مثله، خانتني اللباقة وسقطت في مواقف مثيرة للسخرية لأعود وأندم على تصرفي.

قضينا ست سنوات في نفس الغرفة التي كنا نستأجرها من أرملة في منتصف العمر، على سطح إحدى العمارات في حي المنصور بمدينة الرباط. نجح بسهولة في استقطاب عطف صاحبة الغرفة التي أصبحت تعاملنا بحنان، تتكرم علينا من حين لآخر بطبق كسكس أو طاستين من الحريرة. كما كانت تبدي صبراً كبيراً كلما تأخرنا عن أداء واجب الكراء.

شيء واحد كان يزعجها: زيارة الفتيات لغرفتنا.

تخاف على شرف بنات الناس كما تقول، وينسب عزيز موقفها هذا للغيرة النسائية. لم أكن أفهم شيئاً في غيرة النساء، لكنني كنت أتفهم وجهة نظرها، خاصة وأن كل العابرات لغرفتنا الصغيرة كن من المعجبات بعزيز أو «عزُوزْ خو لبْناتْ» كما كنّ يلقّبنه.

كنت أغبط قدرته الفائقة على التواصل وغواية كل من صادفه في طريقه، تُعينه على ذلك وسامة وابتسامة لا تفارق وجهه. كانت حاجته ماسّة لحب الجميع وكأنه يعوض بذلك عن فقدانه للحب.

لقد انفصل والداه عن بعضهما، وهو في التاسعة من عمره، بسبب غيرة والده القاتلة وشكّه المرضي في كل تصرفات والدته. مما جعل الألسنة تندلق بلا حساب وعلى نحو ممضّ بعد طلاقهما وزواج أمه، عقب ذلك، بشاب أعزب مباشرة بعد انتهاء فترة العدّة.

عاش عزيز مع والده السّي علاّل الذي لم ينتظر طويلاً هو الآخر، بعد طلاقه، ليقترن بفتاة تدعى بشرى تدرس في الثانوية نفسها التي يعمل بها كحارس عام. لكن انفتاح عزيز المبكر على الحب وشغفه بالمرأة، سبّب بعض الضيق لسّي علاّل الذي كان يغار منه على زوجته الجميلة، وهو لم يتعدَّ بعد الرابعة عشرة من عمره. خاصة وأن بشرى كانت من المعجبات بخفة دم عزيز وقدرته الرهيبة على تسليتها وجعل ضحكتها قهقهة مجلجلة. وذات يوم مشؤوم، ضبطه والده - الذي حضر البيت قبل ميعاده- وهو

يتلصص من ثقب بباب الحمام على زوجته وهي تستحم بكل اطمئنان. لم يكن ثقب المفتاح. بل ثقباً أحدثه عزيز بكفاءة عالية بحيث يرى منه كل ما يجري في الحمّام.

كان ذلك آخر يوم له في بيت والده.

انتقل مُكرها إلى العيش مع والدته، تحمّل عجرفة زوجها وسلاطة لسانه لمدة ثلاث سنوات اجتاز بعدها امتحان الباكالوريا.. لتبدأ رحلتنا معاً بمدينة الرباط.

تخرجنا معاً وسافر هو إلى ألمانيا ليلتحق بفتاة أغرمت به خلال قضاء عطلتها الصيفية بالمغرب. كان طامعاً في الزواج منها بغية الحصول على أوراق الإقامة بألمانيا. لكنها ضبطته مع أختها في وضعية مثيرة للشبهة مما أجهض مشروع الزواج، واضطره إلى العودة بخفي حنين.

كان هذا آخر ما بلغني عنه قبل أن تنقطع أخباره لمدة سنة ونصف تقريباً، قضيتها موزعاً بين البحث عن عمل، والمشاركة في كل التظاهرات الاحتجاجية التي يقوم بها أمثالي من العاطلين أصحاب الشهادات العليا،إضافة الى الاعتصامات أمام البرلمان والوزارات المعنية دون أن نلقى آذاناً مصغية. حتى الإضراب عن الطعام، الذي كاد يودي بجسدي النحيل، لم يُجد نفعا.

أحسُّ بجوع لاسع. انتبهت إلى أن المقهى قد خلا تقريباً من الزبائن.

إنها الساعة الواحدة بعد الزوال، لا رغبة عندي في العودة إلى البيت.

ما يزعجني أكثر هو جلوسي إلى المائدة مع شقيقي التوأمين وأختي فاطمة التي تعيل العائلة منذ وفاة والدي.

نظرات الأسى العميق بعيني أمي تسدّ شهيتي.

اشتريت بالنقود التي تركها عزيز على الطاولة ساندويشا وسجائر - أعني علبة سجائر بأكملها- وتوجهت نحو الحديقة العمومية كي أقتل بعض الوقت، متأملاً وجوه الطلبة وهم يلتهمون كراسات التحصيل.. أنا الذي التهم النجاح في الدراسة حلمي بالنجاح في الحياة.

3

جئت إلى المقهى باكراً وأنا متحمس لفك لغز أرّقني طوال الليل.

وصل عزيز، يسبقه عطره وابتسامة يوزعها على الكراسي العامرة منها والشاغرة. قال يستعجلني:

- انهض معي لا وقت لدينا، عندي لك مفاجأة.

تبعته بطاعة الفضول.

ركبنا السيارة نفسها، التي كانت تقودها بالأمس المرأة الجميلة التي لا عمر لها.

سألته بعفوية:

- هل هذه السيارة لك؟

- لا إنها لصديقتي، سأعرفك عليها بعد قليل.

أردفت بسذاجة:

- أتحبها؟

أجاب بنبرة تهكمية:

- لا يجب أن أحبها، لا ينبغي أبداً المزج بين الحب والعمل.

- هل تشتغل عندها؟

انفجر ضاحكا وهو يقول:

- يا لك من ساذج، لم تغير فيك السنون شيئاً. لا يا أخي، لا أنا اشتغل عندها، ولا هي تشتغل عندي، لكن بيننا مصالح مشتركة.

قلت مستنتجا:

- مصالح فيها متعة. أليس هذا ما قلته بالأمس؟

- تماماً، متعة جنسية إن أردت الصراحة.

- وما هي طبيعة عملك؟

- أنا بائع المتعة.

أُسْقِط في يدي، وقد بدأت أفهم ما تجاهلت فهمه من قبل. أحسست بشيء يشبه الإهانة، وبدمي يغلي، فانفجرت معلقاً:

- أهذه طبيعة العمل الذي تعيش منه وتقترحه عليّ.. تريدني أن اشتغل عاهرة؟

- لا تبالغ يا أخي، كيف تقول هذا وأنت الرجل، أتخاف على شرفك؟

أنت الرجل.. أتفهم ما معنى الرجل؟ لن يعيب عليك أحد، أنت تعطي المتعة وتستمتع بدورك، وتتقاضى أجراً لا يستهان به.

كمن لا يصدق ما يصل إلى مسامعه سألت للتأكد:

- أتريدني أن أبيع جسدي؟

قهقه قائلاً:

- بدأنا بالألفاظ الفضفاضة: أبيع جسدي.. جسدك لاصق فيك يا أخي. وإن كانت حيواناتك المنوية لا ثمن لها، استعمل العازل الطبي. أليس هذا أحسن من أن تمد يدك لأختك؟

كانت هذه هي العبارة التي أفاضت الكأس، فصرخت في وجهه منفعلا:

- قف هنا، قف هنا، أنزلني.

- معذرة، إن كنت قد جرحت كرامتك. لكن إعلم أنك لن تكون أول ولا آخر من تقاضى أجراً على متعة. ما رأيك في الأزواج الذين يعيشون عالة على زوجاتهم؟ أليست هذه دعارة مشروعة؟

احتد غضبي، وأنا أسمعه يبرر ما لا تبرير له في عرفي، فقلت محاولا كبح أعصابي المنفلتة.

- أرجوك يا عزيز أنزلني هنا، واذهب إلى حيث تريد.

أوقف السيارة وتوجه نحوي في محاولة أخيرة لإقناعي:

- أرجوك، اسمعني: نحن على مرمى حجر من «بوز» أعني «شاطئ بوزنيقة»، تعال معي أقدم لك صديقتي، نشرب كأسا، ثم نعود وكأنني لم أقل لك شيئاً. اتفقنا؟

وافقت موافقة من وجد نفسه في شَرك.

4

وصلنا إلى «بوز» أو «بوزنيقة باي» المنطقة السياحية التي تُعدّ الآن مَحجّا لذوي الثروات الضخمة. دخلنا فيلا من الفيلات التي لا نراها إلا في الأفلام.

استقبلتنا صديقة عزيز بفستان يكشف عن مفاتن تقهر الزمن، وابتسامة تسقط عنك قراراتك الحاسمة.

قالت بلطف فائق:

- مرحباً بأمين، أنا ليلى، عزيز كلمني عنك كثيرا، تفضل مرحباً بك.

تقدمتنا إلى شرفة مفتوحة على البحر، تتوسطها طاولة رصّت فوقها أنواع عديدة من المشروبات، ثم توجهت نحوي قائلة بغنج وبحّة الرغبة تكسر صوتها:

- سآخذ منك عزيز لبعض الوقت، خذ راحتك، أنت في بيتك.

وانسحبا معاً إلى الداخل.

جلست أتأمل البحر وأدخن مانعاً نفسي من التفكير فيما ينهمك فيه عزيز لحظتها. وإذا بسيدة، فارعة القوام، كأنها حورية خرجت لتوها من البحر، تأتي إلى الشرفة وقد بدت عليها الدهشة من تواجدي هناك.

لاح صوتها ناعماً في ارتباك:

- عفوا، أنا أبحث عن ليلى.

أجبت محرجا:

- أظنها في الداخل.

قالت:

- حسنا، سأنتظرها هنا.

تقدمت نحو الطاولة. أخذت كأسا. أضافت إليه بضع مكعبات من الثلج وصبت من قارورة ويسكي، ثم أشعلت سيجارة وجلست في خشوع تتأمل منظر الغروب متجاهلة وجودي.

شيء ما في عينيها يذكرني بأحلام، ربما سوادهما، ربما حزنهما، ربما نظرة ساهمة تقول:

«ليت الظروف كانت أحسن».

فجأة، التفتت نحوي سائلة:

- ألا تشرب شيئاً؟

أجبت في حرج:

- بلى.

توجّهتُ نحو الطاولة. أخذت كأسا. أضافت إليه بضع مكعبات من الثلج وصبّت من نفس القارورة، كطقس معتاد، دون أن تسألني عما أرغب في شربه.

جلسنا مرتبكين، والشفق يلفنا بحمرة دافئة، كلّ يمسك كأسه وكلّ يبلل بها الحنين.

وإذا بها تباغتني بالسؤال عن اسمي؟

أجبت:

- أمين.

قالت:

- أتمنى أن تكون أمين الأسرار. وأنا بسمة..

وابتسمَتْ.

وددت لو أردّ:

- أمين الدمار سيدتي أراكمه بداخلي، أحرسه من التلف.

لكنني اكتفيت بشبح ابتسامة.

تلح علي صورة أحلام من جديد وهي تقول لي: «نصيحة: لا تكن غبياً ولا تفرض غباءك على أحد.. الحب لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد».

بسمة تدخن في خشوع، سيجارة تلو أخرى، تسافر في الأفق.

قالت كما لو أنها تكلم نفسها:

- أحسد هذه البواخر التي تمخر عباب البحر..

ثم أضافت وهي تنظر باتجاهي، وأنامل يدها اليمنى تخمد برفق أنفاس سيجارة في المنفضة:

- لا شيء غير الرحيل يستحق العناء.

لم أجد ما أرد به. أغبط عزيز على سرعة بديهته.

صمتنا أكثر مما تكلمنا، لم أكن أعلم إن كانت من النساء اللواتي يقدمن العطاءات من غير حساب، على حدّ قول عزيز، أو إن كانت متزوجة. هممت أن أسأل ولكن عقدة لساني أصرت على أنه لا يهم ما دمت لن أعود للمشاركة في هذه التفاهات.

تحركت ريح باردة، ضمّت إليها ذراعيهاَ العاريتين. لم أدر كيف وجدت الشجاعة لأقف مثل جانتلمان متحضر، وأضع سترتي على كتفيها.

تمتمت:

- شكراً.

وابتسمت لي بامتنان.

كان حزن ينبعث من عينيها يدعوني لضمها. تماسكتُ، إنها ليست أحلام.

رن هاتفها النقال، ألقت نظرة على الرقم، ونهضت مرعوبة إلى الداخل لترد.

عادت وهي تتمتم:

- عذراً، إنه زوجي.

أشعلت سيجارة أخذت تلتهمها في صمت، وأنا أراقبها خلسة.

سألتني:

- هل أنت متزوج؟

اكتفيت بـ «لا» وشيء بداخلي يود لو يحكي لها قصتي، لو يقول:

«أنا عاطل سيدتي.. عاطل عن الحب منذ تزوجت أحلام من غيري».

اجتاحتني رغبة قوية في البوح. سواد عينيها الفسيح يستدرجني لسكب حزني فيه، أسمعه يقول لي:

«أتسعُ لأكثر من حزن، فلا تتردد..».

ساعتها ظهر عزيز وليلى وهما يتعانقان كمراهقين اكتشفا الحب حديثا.

صافحت بسمة عزيز كمعرفة قديمة، واستأذنت من الجميع. حاولت ليلى أن تستبقيها قليلاً لكنها قالت بنبرة اعتذار:

- لقد تأخرت. . «الذئب» بالبيت.

أعادت إليّ سترتي مع عبارات رقيقة عبرت عن شكرها وانصرفت.

خرجنا عزيز وأنا تسبقنا ليلى، التي اقترحت أن تقلنا إلى محطة القطار، والليل يزحف في سكون وجلال.

5

في مقصورة القطار السريع، ونحن في طريق العودة إلى الدار البيضاء، توجه عزيز نحوي بسؤال خبيث:

- ما رأيك في بسمة؟

أجبت بحدة:

- لا تهمّني في شيء.

علق ساخراً:

- إنها تكبرك سنّا، جميلة، ثرية، وتعيسة: مواصفات تجعل منها زبونة مثالية.

- أنت لا تحترم المرأة يا أخي.

- على العكس، أن تحترم المرأة هو أن تحترم أنوثتها، أن تعترف بحقها في المتعة، لا أن تقدسها. المرأة ليست لا تمثالاً ولا ملاكاً ولا شيطاناً حتى. إنها إنسان وأنت إنسان. مارس إنسانيتك يا أخي، ودعها تمارس إنسانيتها دون نظريات جوفاء.

تخلصت من سؤال يلحّ علي:

- هل ليلى متزوجة؟

- أجل.

- وزوجها؟ أما فكرت بزوجها؟

- ما دخل زوجها بالأمر، ثم أنا أسدي له معروفا، أقوم بما لم يعد له لا الوقت ولا الرغبة ولا حتى القدرة على القيام به.

قلت وكأنني أسائل نفسي:

- لماذا لا يطلبن انطلاق إذا كن تعيسات إلى هذا الحد؟

أجاب بحماس وكأن الأمر في أتم الوضوح:

- لأن هذه الطبقة من المجتمع لا تُطلّق. الزواج فيه رتبة اجتماعية يؤدي عنها الزوج، كما يؤدي ليحتفظ بكرسيه في البرلمان، ويحافظ على مناصب أو مراتب أخرى. كل شيء يُشترى.. هو يشتري صمتها، خضوعها، استمراريتها في اللعبة. وهي تستعمل نقوده لتحقيق رغباتها.. كل رغباتها بما فيها الرغبة في الجنس.

لا أصدق ما أسمع، ألهذا الحد أنا جاهل وغريب عن مجتمعي؟ أشغلني التاريخ لدرجة فصلي عن الحاضر؟ أم أن الحياة تغيرت من حولي في غفلة مني؟

يجتاحني فضول عارم. سألت عزيز:

- كيف دخلت إلى هذا العالم وأصبحت فيه الفتى المرغوب أو العشيق أو ما يسمونه «جيغولو»؟

فكر قليلاً قبل أن يرد:

- أفضّل لقب «الفتى المرغوب أو العشيق». جميلة هي العربية الفصحى. أحسن من لقب «الزّلاّل» بالعامية. ما علينا؟.. عند

عودتي من ألمانيا، وخيبة الأمل تنهشني، وصدمة وفاة والدتي في غيابي، بدأتُ رحلة البحث عن شغل: إعلانات، اتصالات.. كل ما كان يُقترح علي من أجر لم يكن يكفي ثمن الإيجار. وذات مرة وأنا في مقهى أقلب الجرائد - كما تفعل حضرتك يومياً- تقدمت صوبي امرأة جميلة بابتسامة عريضة تمسك سيجارة بين أناملها وتسألني إن كانت لدي ولاّعة. أشعلت لها سيجارتها فعرضت علي واحدة من علبتها. أخذتها شاكرا - أخوك كان ساعتها في أمس الحاجة إلى أدنى سيجارة - سألتني إن كنت أنتظر أحدا، فأجبت بالنفي ودون أن تستأذنني جلست إلى طاولتي وطلبت من النادل قهوة.

استفسرتني عن طبيعة شغلي.. دعتني لشرب كأس على البحر قصد التعرف على بعضنا أكثر.. وهكذا وجدتني عندها في الفيلا التي عرفتها. كل شيء مرّ بسرعة، الكأس، التعارف، وممارسة الجنس. وعندما ودعتني عند محطة القطار دسّت في جيبي ألف درهم. صعقتني المفاجأة، لكنها قالت بلطف شديد: «لا تكن غبيا، أنت عاطل، كل شيء بثمنه».

أخذ نفسا عميقاً واستطرد:

- لا أنكر أنني أحسست بالإهانة، لكن وقع دفء الألف درهم على برودة جيبي سرعان ما جعل هذا الإحساس ينسحب إلى غير رجعة. طلبت مني أن نلتقي مرتين في الأسبوع. قلت لنفسي: لا بأس، إنه حل موقت في انتظار أن أجد شغلا. لكن لا يوجد شغل يماثل ما أجنيه من إمتاع ليلى علاوة عن الهدايا الثمينة. أنظر إليّ، إلى هذه الساعة اليدوية وغيرها.

صمت هنيهة كمن يتردد في قول شيء، ثم أضاف:

- قدمت لي ليلى بعد شهرين من علاقتنا صديقتين انضمّتا إلى لائحة الزبونات بحيث أصبح لديّ برنامج حافل: بمعدل مرتين في الأسبوع لكل واحدة، ما يملأ ستة أيام في الأسبوع، وأرتاح يوم الأحد لأنه اليوم الذي يخصصنه للزوج والأسرة.

قاطعته:

- وهل بسمة من زبوناتك؟

- لا، بسمة ليست زبونة لأحد، هي تشبهك، تموت في الرومانسية والدموع.

خمنت قبل أن أسأل:

- ألهذا فكرت في ترتيب لقاء بيننا؟

رد مؤكداً:

- هي في الحقيقة كانت فكرة ليلى عندما حدثتها عنك البارحة، حتى بسمة لم تكن تعلم بمجيئك.

- وهل تعلم بطبيعة علاقتك بصديقتها؟

- أجل، وتؤمن بأن كل واحد حر في حياته. هي عندها النضج الذي ينقصك.

كعذراء وجدت نفسها صدفة ببيت للدعارة تمتمت:

- أينتابك أحياناً إحساس بالذنب؟

ضحك من سؤالي قبل أن يجيب:

- لا، الفرق بين هذا النوع من العلاقات والعلاقات المسماة

شرعية، هو كون قواعد اللعبة في الأولى واضحة للطرفين يدخلانها باقتناع، كما تدخل شراكة في عمل، لكل واحد مصلحة محددة يعمل الآخر على احترامها. ثم لماذا تريدني أن أحس بالذنب؟ أنا لا أتاجر في المخدرات، لا أسبب الضرر لأحد، أنا فقط أسعد نساء ناضجات، نزولا عند رغبتهن.

- ما يحيرني هو كونهن نساء لا ينقصهن شيء.

قاطعنا مراقب التذاكر وهو يدخل المقصورة. ثمّ عقب عزيز بعد خروجه:

- ما الذي يحملك على الظن بأنه لا ينقصهن شيء؟ لا تغتر بالمظاهر يا صاحبي.. ينقصهن ما هو أساسي: الحنان، نظرة رجل، لمسة، كلمة طيبة.. أتعلم، هؤلاء النسوة لا يطمعن في الحب بعد أن خانهن العمر. إنهنّ يتنقلن بين عيادات التجميل وصالونات الحلاقة ونوادي الرياضة. أصبحت الواحدة منهن تشبه الأخرى في شكلها، نفس الوجوه.. وجوه فقدت كل تعبير من كثرة التمطيط: الأنف الرقيق نفسه، والشفاه المكتنزة نفسها، والنهود النافرة نفسها، والشعر الذهبي الاصطناعي نفسه.

هن أيضا عاطلات عن الشغل، يقتصر شغلهن على الظهور بجانب أزواجهن في المناسبات والحفلات.. يؤثثن طاولات المفاوضات والصفقات. يدخلن في منافسات مع عشيقات أزواجهن.. عشيقات في سن الورود لا يملكن، مثلنا، سوى فتوتهن. قالت لي مرة إحدى زبوناتي إنها لا تطلب الطلاق خوفا من أن تغدو وحيدة في أواخر أيام عمرها، دون حتى زوج لتكرهه.

أخذ نفسا عميقاً ثم أضاف:

- اضطهاد المجتمع للمرأة جعلها تتعلم كيف تمارس الحياة حتى وهي وراء القضبان.. جعلها تتقن فن البقاء على قيد الحياة.. تعلمتُ الكثير من هؤلاء النساء.. تعلمت منهن العطاء في الحب.. تعلمت أن تكتمل متعتي بمتعتهن.. أدركت إلى أي حد كنت أنانيا، وهمجيا، وجاهلا بجسد المرأة ومتطلباته.

قلت بشيء من التعجب:

- لا أستطيع استيعاب إعجابك بهؤلاء النساء.

قال وهو ينظر إليّ بإمعان كأنه يصارحني بشيء:

- أحترمُ ذكاءهن.. هن أذكى من الرجال بكثير. أتعلم؟ لا توجد امرأة لا تشك في زوجها لأنها بقوة حدسها تفهم أكثر طبيعة البشر وتفرق بين الإنسان والملاك. في حين لا يوجد رجل يشك في زوجته لأن غروره بفحولته يضع غشاوة سميكة على عينيه بحيث يمكن لكل نساء العالم، في نظره الضيق، أن يصبحن عاهرات إلا زوجته وأمه طبعاً. أليس هذا مطلق الغباء؟

قلت وقد تعبت من قدرته على إيجاد الجواب الجامع المانع لكل سؤال وكأنه قد درس الموضوع جيدا وأصبح مُنظّرا فيه:

- أنت تعرف طرازا خاصا من النساء، ولا يمكنك التعميم..

- ربما، لكن طبيعة الإنسان أشد تعقيدا من أن تفهمها.. ولا أحد يعيش بدون أسرار.

- ما أفهمُه هو: أن أصحاب المال عندما يضيع منهم الشباب

يحاولون شراء شباب الآخرين. فهذه العلاقات تدخل في إطار محاولة استعادة الزمن الضائع شأنها في ذلك شأن عمليات التجميل والأقراص المضادة للشيخوخة.. علاقات تمنحهم الإحساس بنوع من الحيوية وتجديد الدماء. . «ما دام باستطاعتي ربط علاقة مع شاب فأنا شابة أيضا».

أتعلم ما هو أفظع من الشيخوخة؟

- ما هو؟

- الخوف منها.

عضّ شفتيه بعصبية وقال:

- لنفرض أن كل ما قلته صحيح. لماذا عندما يتعلق الأمر برجل مسن يدخل في علاقة مع فتاة في سن حفيدته يُعتبر الأمر عاديا بل وضروريا لتوازن ما. وعندما يتعلق الأمر بامرأة تعاشر رجلا أصغر منها سنّا تصبح المسألة غير مقبولة بل ولا أخلاقية؟

أتعلم ما هو الشعار الذي ينقصنا في هذا البلد الحبيب؟

- ما هو؟

- هو «عش ودع غيرك يعيش».. عليك أن تختار بين أن تعيش حياتك أو أن تكرسها لمنع الآخرين من العيش.

ينساب صوت نسائي من ميكروفون المقصورة ليضع حدا لجدالنا: «محطة الدار البيضاء الميناء».

نزلنا. عزيز يحسّ برعونة طفل فاز بلعبة، وأنا أحسّ بثقل شيخ ما زال يفاجئه العالم.

اقترح علي شرب كأس قبل أن نفترق، لكنني اعتذرت بدعوى التعب وقد شربت ما يستعصي عن الهضم.

قال:

- بعد يومين سأصحب ليلى إلى مدينة مراكش لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ما رأيك؟ نشرب كأسا في الغد قبل أن أسافر؟

أجبت:

- حسنا، إلى الغد.

تركته وأنا أتوجه نحو موقف الحافلة لأنضم إلى أشباهي من الحشود التي تربت أبداً على الانتظار.

6

كانت ليلة بيضاء اختلطت فيها أحلام ببسمة..

أحلام التي حلمتُ بها لسنوات قبل أن أستفيق على صفعة الواقع.

ما الذي يشدّني إلى بسمة؟

أهي الهالة الضبابية التي تحجب ابتسامتها وتجعلها أقرب إلى السماء منها إلى الأرض؟

أهو البريق الخاطف، مزيج من رعب وتأمل، الذي يعبر نظرتها بين الحين والآخر؟

أهو الشّعر الحالك.. كأيامي؟.

أم ترى ما قاله عنها عزيز: «ليست زبونة لأحد.. وتشبهني». أحقا تشبهني؟ هي المتربعة على عرش الجمال والثروة، وأنا العاطل الخجول.

لماذا شغلت تفكيري وكأنها أحلام ماضيّ بُعثت في حاضر مجهض الأحلام؟.

ما لي أتمنى أن يصحبني عزيز معه من جديد إلى بيت ليلى، علّني أصادفها.. نتقاسم الغروب، وكأس الويسكي، وسيجارة؟ لا أطمع في أكثر.. أو ربما بلى.. أطمع في حديث يروض الرعب والحزن معاً.. أطمع في إحاطة ذراعيها العاريتين بسترتي.

تذكرت سترتي..

نهضت من السرير، أخرجتها من الدولاب، دسست وجهي في ثناياها أبحث عن بقايا عطر نسائي أو رائحة. ها هي شعرة طويلة سوداء تتلألأ فوق بياض القماش الداخلي. أمسكتها برفق.. أخذت أمرّرها على أصابعي كخيط الحياة.. أتكون قد أهدتني إياها من غير وعي للذكرى؟ أم أن سترتي تمسكت بآخر خيط يشدها إليها؟

أخذت من رف المكتبة كتابا بالصدفة لأدس الشعرة بين دفتيه، وإذا به ديوان الشاعر آراغون «عيون إلسا». أحسست بنوع من الارتياح. آراغون هو من يستحق أن أأتمنه على شعرة بسمة. أليس هو الذي تفانى في حبه لإلسا طوال العمر وكتب فيها أجمل الأشعار؟

ما هذه الرومانسية التي تجرفني من جديد؟

أما تعلمتُ بعدُ من الخيبات التي سببها لي خيالي الجامح؟ وهو يغذي لسنين حلما كنت فيه وحدي، وظننت أن أحلام تشاطرني إياه. أحلام التي كنت وسأظل بالنسبة إليها «الصديقة الوفية» التي تعرفها من خلال المراسلة.. بل وحتى هذه العلاقة نجحتُ في تدميرها.

كانت أحلام جارتنا، وكان والدها رجل شرطة صارما، يراقب كل تنقلاتها بحيث لم يتجرأ أي شاب من شباب الحي على معاكستها، وأنا أحدهم. وعندما انتقلتُ إلى مدينة الرباط للدراسة الجامعية جاءتني، بعد ليال من التفكير، الفكرة الجهنمية التي ستسعدني لسنوات: فكرة مراسلتها.

كيف؟

تقمصت شخصية خيالية لفتاة تدرس بالرباط، سميتها ربيعة المريني، أسكنت أسرتها بمدينة فاس، ونجحت في إقناع أحلام بأنني حصلت على عنوانها من صديقة مشتركة - دون الدخول في التفاصيل - ولتدعيم قولي أرسلت إليها صورة من الصور التي كانت في حوزة عزيز، طبعاً دون أن أفاتحه في الموضوع أو آخذ برأيه، لعلمي مسبقا باحتقاره لكل الطرق الملتوية للتقرب من الفتيات.. هو الذي يقتحم أولا ويفكر ثانيا.

كنت أشك في كون والدها يقرأ الرسائل التي تصلها. لذا، كانت رسائلي جادة، أطرح فيها مواضيع للنقاش تقربني من عوالمها أكثر، من طريقتها في التفكير، من ذوقها وأحلامها في الحياة. كانت تجيب على رسائلي بانتظام وبكل صدق وأرسلت إليّ مجموعة من الصور التي ملأت علي حياتي. كنت سعيدا بهذا التواصل وقد أصبحت أعرف عنها، في غفلة منها، كل شيء مما زاد إعجابي بها وحبي لها. وبينما كان عزيز يراكم العلاقات الواقعية الحميمية كنت أنا أراكم الرسائل متخفيا وراء صورة إحدى صديقاته. إلى أن جاءت الرسالة المدمرة، بعد أكثر من ثلاث سنوات من المراسلة، تحدثني فيها أحلام، بكل سعادة، عن شاب يعمل أستاذا مساعدا بالكلية سيتقدم لخطبتها متمنية لي ألا أتأخر في العثور على فتى أحلامي.

لا أعلم كيف وجدتُني في الدار البيضاء أنتظرها عند بوابة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

صافحتني بأدب، كانت تعرفني باعتباري ابن الجيران، قلت:

- أود أن أتكلم معك في موضوع فائق الأهمية.

ارتبكت قائلة:

- خيرا إن شاء الله.. يجب ألا أتأخر.

وحتى لا أسبب لها أدنى تأخير ومن فرط ارتباكي قلت دون مقدمات:

- أنا ربيعة المريني.

- ماذا؟ أتعرفها؟ إنها صديقة عزيزة ولو أننا لم نلتق بعد.

- لا.. أعني .. أنا.. أنا هو ربيعة، في الواقع لا توجد أي ربيعة.. أنا الذي تقمصت هذه الشخصية لأراسلك وأتعرف عليك..

بدت كأنها لم تفهم، وقد زاد ارتباكها وتحول شيئاً فشيئاً إلى غضب معلن.

- كيف تسمح لنفسك بخداعي والتجسس على حياتي؟

قاطعتها قبل أن تجرح كرامتي..

- أنا أحبك منذ زمن بعيد.. ولم أجد طريقة للكلام معك.. خوفا من والدك.. وظننت أنك سوف تقدرين شعوري ومبادرتي.. و.. و

- كيف سوّلت لك نفسك أنني من الممكن أن أحبك لمجرد أنك راسلتني باسم مستعار. أنا لا أعرفك أنت.. أنا أعرف ربيعة وإن كنت أنت ربيعة فأنا لا أعرفها وأرجو أن تنسى هذا الموضوع نهائياً.

همّت بالرحيل وهي تضع نظارتها الشمسية فوق عينيها لتخفي شرارة الغضب، في محاولة أخيرة قلت:

- أرجوك.. انتظري قليلاً.. من خلال الرسائل عرفت عنك..

التفتت صارخة:

- عرفت ماذا؟ لو ظننت أنك تعرفني من خلال الرسائل فأنت مخطئ. أنا لا أكتب إلا ما يمكن لوالدي قراءته. أنت لا تعرف شيئاً عن قلبي عن علاقاتي العاطفية وإن كنت أحب أحدا وإن سبق لي ممارسة الجنس.. نصيحة: لا تكن غبيّا ولا تفرض غباءك على أحد.. الحب لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد.

وهكذا وبسبب غبائي وخجلي المميت ضيّعت حب عمري.

فكرت في عزيز كيف أنه يعرف ما يريد ولا شيء يكبح عزائمه، كيف تحرر من كل الكوابح الموروثة لتصبح المتعة قضيته الكبرى، بينما لا زلت ذاك المحارب المثالي أكرس حياتي لقضايا خاسرة.

7

استُقبِل عزيز في الحانة استقبال المهمّين.. أعني الكرماء.

تقدمت نحونا ميمي (هكذا صاح وهو يراها وراء الكونتوار) بجسدها الذي يئن من ضيق فستان الساتان الأحمر. تترنح يمنة ويسرة، وشعرها الذهبي الذي يبرز أكثر بشرتها السمراء الداكنة مسدل على ظهرها نصف العاري. أخذت لنا مقصورة منزوية وأشارت إلى إحدى الفتيات أن تحل محلها وراء الكونتوار لتتفرغ لنا.

عزيز يهرج وهو يستعرض عضلات لسانه الثمل أمام ميمي، التي تدفعنا للمزيد من الشرب ببراعة محترفة. المقصورة ضيقة، والإنارة خافتة، وضوضاء السكارى تحجب صوت أم كلثوم:

«جدّدت حبك ليه.. ليه، بعد الفؤاد ما ارتاح.. حرام عليك، حرام عليك، خليه غافل عن اللّي راح».

فتاتان جميلتان تقدمتا في غنج ملفت للسلام على عزيز «البوكَوص» كما يلقبونه هنا، أمرتهما ميمي بالاهتمام بالزبائن الجدد.

أرقب عزيز وميمي، وأفكر بليلى، هذا التبادل في الأدوار يجعل عزيز مرة المشترى ومرة المشتري.. يهدر بسخاء أموال ليلى على ميمي ومثيلاتها.

تذكرت مثلاً شعبيا يقول: «فْلوسْ اللّبَنْ كيَدّيهُم زَغطوُطْ».

استأذنت ميمي لترد على مكالمة هاتفية. فانتهزت الفرصة لأبادر عزيز بالسؤال:

- ألا تغار ليلى عليك يا دون جوان؟

- لا، أبدا، أوضحت لي منذ البداية أن الأمر لا يتعدى كونه مشروعا جنسيا صرفا. وأن لا رغبة لها في علاقة تعطيها الإحساس بالضعف. أنا أتفوق عليها في كوني أصغر منها سنا بكثير، وهي تتفوق علي بما لا أمتلكه: المال. لهذا هي تصر على دفع الثمن حتى تحس بنوع من التوازن. هي امرأة واقعية جدّا. قالت كذلك إنها تعلم أن جسدها رغم كل الروتوشات لم يعد له رونق الصبا وريعانه لذا تفضل أن «تشتري» شأنها في ذلك شأن الرجال الذين يفضلون الفتيات الصغيرات. كما أنها لا تريد علاقة حب تدمرها على حد قولها.

- ظننتها أكثر ثقة بنفسها، إنها جميلة حقا. ثم أستبعد ألا تكون قد وقعت في حبك بعد.

- لا، لا أعتقد ذلك، لقد قدمت لي صديقاتها، كزبونات، لتبرهن لي على أن لا أحد يمتلك أحدا وأن لا مجال للغيرة في علاقة من هذا النوع. وضعتني بتصرّفها هذا في الخانة الصحيحة مجردا من كل وهم وكل حلم خارج الكسب المالي.

توجه لكل من في الحانة بصوت عال رافعا كأسه:

- لنرفع كؤوسنا للكسب المالي.. ولتسقط الأوهام.

ردد كل من في الحانة بعده: «لتسقط الأوهام».

قلت كما لو كنت أفكر بصوت مسموع، وقد بدأ مفعول البيرة يدفعني للتفلسف:

- بالتأكيد، خوفنا من الحب هو الذي يدفعنا للمتعة دون عواطف.. دون وعد بوجع جديد.. بفقدان جديد. عندما تدفع ثمن متعتك بالكامل فأنت تتحرر من كل الوعود.. تتحرر من الغد.. تتحرر من الرغبة في غواية الآخر. تفقد هوسك بإعجابه بك، حتى وإن كانت الغواية هي بداية اللعبة وقاعدتها الأساس. أليس كذلك؟

ضحك عزيز قائلاً:

- أتعلم؟ لقد بدأت تتكلم مثل ليلى. قالت لي بالحرف: «عندما تسرقنا الأعوام ونكون قد راكمنا ما لا يحصى من خسارات وخيبات نصير كمن لقّح ضد مرض لعين.. تصبح لنا مناعة مكتسبة ضد السقوط في العشق.. وقد أضحى سقوطنا من نوع آخر».

عادت ميمي وهي تحرّك ردفيها على إيقاعات الموسيقى. جلست ملتصقة بعزيز الذي بدت عليه أمارات السكر.

أثار انتباهي رجل جالس لوحده في إحدى الزوايا، كان يبدو كمن يقيم خارج الصخب، ممسك بملف وقلم ومنهمك في رسم شيء ما. سألت عنه عزيز:

- من هذا الشخص؟ أهو فنان تشكيلي؟

- آه! الأستاذ إدريس إنه يرفض لقب فنان، إنه أستاذ للرسم محال على التقاعد.

- كيف يستطيع أن يرسم وسط هذا الضجيج؟

تدخلت ميمي موضحة:

- إنه يرسم نفس البورتريه، كل ليلة، لنفس المرأة.

- يرسمه هكذا من الذاكرة؟

- نعم، حتى لا ينسى ملامحها على حدّ قوله. إنها قصة غريبة قد يحكيها لك ذات يوم لو دخلت مزاجه.

- أتمنى ذلك.

8

«كل شيء يجب أن يدل على أنك خلقت لهذه الوظيفة وليس لغيرها.. يجب أن تكون مُقنعا إلى أبعد الحدود. كل شيء فيك مقنع: هيأتك، تسريحة شعرك، طريقة كلامك، هندامك، حتى حذاؤك.. يجب أن يدل على ذوقك الراقي، ومزاجك الصافي، وذكائك الفائق.. حذاء ذكي..».

اختلست نظرة إلى حذائي وأحذية الفريق الذي يصغي باهتمام إلى المُكوّن الذي بدا مُقنعا في حذائه اللمّاع.

«قصد التغلب على الارتباك والقلق ساعة المحادثة مع صاحب العمل، يجب القيام بتمارين للتنفس خاصة التنفس بالبطن، قبل الجلسة، إنه يمنح نوعا من الاسترخاء وطبعا يجب أن تكون قد أخذت قسطك الكافي من النوم وتغذيت دون مبالغة وتحاشيت القهوة وكل المنشطات..».

فكرت أنها طريقة قد تنفعني في التغلب على خجلي أمام النساء.. أعني تمارين التنفس البطني.

«طبعا تقديم النبذة عن السيرة له قواعد وهو يختلف باختلاف العمل الذي نرغب فيه. لا تنس أنه مفتاح الباب الأول لولوج عالم الشغل. فكل تجربة سابقة لها أهميتها.. ثم علينا لا نغفل أهمية

الشكل الذي نقدم به هذه الوثيقة. أجيبوني: هل سترغبون في شراء هاتف محمول قدّم لكم في علبة قديمة بطريقة مهملة حتى ولو كان أفضل ماركة توجد في السوق؟ طبعاً لا، الشكل هو الذي يولد لديك الرغبة في اكتشاف المضمون..».

كدت أسأل: «ومن لا تجربة له؟ أعني لا مضمون له، هل ينفع الشكل الذي يقدم به السيرة لإقناع المشغّل؟».

لكن حماسة المكوّن واندفاعه في الكلام لا تعطيك أدنى فسحة لمقاطعته.

«وكذا الرسالة التحفيزية. لماذا أنت مهتم بهذا المنصب بالذات..».

قلت في نفسي: والله ليس ثمة من محفّز أكبر من البطالة، وأنا لن أشترط في الوظيفة شيئاً غير الحصول على وظيفة.

«يجب أن تتعلم كيف تبيع نفسك (بالفرنسية لها وقع أكثر مهنية) على أحسن وجه. أنت من يحدد القيمة، ويقنع بها المشغّل..».

تذكرت عزيز الذي فهم كل هذه الأمور دون أن يحتاج إلى تكوين من هذا النوع. تكوين دفعت فيه أجراً لم أتقاضاه بعد، لأتعلم خلال ثلاثة أيام كيف أبيع نفسي في عالم التشغيل.

كانت هذه فكرة أحد الأصدقاء رشيد دريدر، الذي يشتغل في شركة للإشهار براتب محترم. كان قد استهل دراسته الجامعية معنا، عزيز وأنا، في شعبة التاريخ والجغرافيا بالرباط، لكن بعد أن أخفق في اجتياز السنة الأولى سجّله والده، الذي كان تاجرا

بالجملة، في أحد المعاهد الحرة التي تكلف الكثير بالدار البيضاء، ولكنها تضمن لك الشغل بعد التخرج.

التقيت رشيد صدفة في المقهى، فأعطاني درسا مهما في كيفية البحث عن عمل، وأشار عليّ بهذا التكوين الذي سيؤهلني إلى اقتحام عالم الشغل.

كان يبدو منظماً، لا تفارقه مفكرته التي يسجّل فيها بقدسية كل المواعيد ويحترمها بقدسية أيضا، حتى مواعيده مع الحلاق، ومع صديق في المقهى، ومع والدته يوم الجمعة لتناول كسكس العائلة.. ومع خطيبته.. كل المواعيد.. وحده موعده مع الموت كان غائبا عن مفكرته.

قال لي بطريقته المقنعة التي تشيع الإحساس بأنه يفهم في كل شيء:

- الزمن تغير، وهناك شُعَبٌ دراسية يجب إلغاؤها بالمرّة مثل: التاريخ والجغرافيا والآداب والفلسفة.. كلها دراسة نظرية محضة. ألا توافقني؟.. ماذا ستفعل بالدكتوراه في الفلسفة مثلا؟ لا شيء غير التدريس لتكوّن بدورك عاطلين آخرين. مع أنه الآن توجد معاهد تواكب العصر: الإدارة، الإعلاميات، التواصل، التجارة، الصناعة.. وغيرها. وإن لم تكن لأسرتك إمكانات مادية لتحمل عبء نفقات دراستك فيمكنك أخذ قرض من البنك تسدده من عملك بعد سنوات..

أليس هذا أجدى من قضاء عمر في حفظ المَعَرّي؟ هو شاعر أليس كذلك؟ أجل أذكره، وأعمى فوق ذلك، تحفظ قصائد عمياء لتجد نفسك عاطلا، أليس هذا هو العمى المبين؟

هكذا أقنعني بالاستفادة من هذا التكوين، الذي تشرف عليه الشركة التي يشتغل بها، واقترح عليّ أن يقرضني ثمن الحصص، مقتنعا مرة أخرى بأنني بعد هذا سوف أنجح حتما في إيجاد شغل.

كان يضمر إعجاباً كبيراً لرئيسه في العمل، ويقول عنه:

- إنه عبقري! يخلق لديك حاجة ماسة إلى شيء عشت من دونه عمرا بأكمله، يقول إن المستهلك لا يعرف ما يريد وعليك أنت أن تقترح عليه المواد التي لا يعرفها. وطبعا للإشهار طريقة خاصة توهمك بأنه يقترح عليك وهو في حقيقة الأمر يرغمك على الاستهلاك مخاطبا أعماق لا وعيك. أتعلم؟ شركات الإشهار تعتمد على خبراء في علم النفس ومحللين نفسانيين لسلب المستهلك القدرة على الاختيار لتصبح حرية الاختيار لديك محصورة في الاختبار بين هذا المنتوج أو ذاك. سأعطيك مثالا: عندما ترتاد محلا تجاريا تستقبلك ابتسامة مدروسة تقول لك: أيمكنني مساعدتك؟ نحن هنا لخدمتك قبل أن تسألك بثقة: أتريد هذا النموذج أم ذاك؟ فتجد نفسك بين براثن كمين أعدّ لك بإتقان وتعتقد بأنك حر في الاختيار، وتنسى أنك لم تعد حراً بل تفكر فقط في أيهما تختار. وبالمناسبة، لا تتذكر على الإطلاق، أنك كنت فقط ماراً من هنا.

أحس بأنني فعلا كنت «فقط مارّاً من هنا» وإذا بي أتعلم كيف أبيع نفسي.

أخرجني المكوّن من أفكاري قائلاً: «تفضل سنحاول أن نمثل الدور. أنا المشغّل الذي سيحادثك، وأنت طالب الشغل». ما كنت يوما أحسن التمثيل لكنني هنا، الآن، لأتعلم.

جلس إلى مكتب وتقدّمتُ نحوه، صافحني بأدب، وأشار إليّ بالجلوس قبل أن يسدد نحوي طلقات من الأسئلة التي قال عنها رشيد إنها روتينية ولكن مدروسة من لدن المحللين النفسانيين. أسئلة مربكة في بساطتها من نوع: حدثني عن نفسك. حدثني عن تجاربك السابقة في ميدان الشغل. منذ متى وأنت تبحث عن شغل؟ ماذا تعرف عن شركتنا وعن منتجاتنا؟ لماذا برأيك يجب اختيار شركة كبيرة أو شركة صغيرة؟ ما الذي يجذبك في العمل بشركتنا؟ ماذا يمكنك إضافته لشركتنا؟ ما هي إيجابياتك؟ ما هي سلبياتك؟.. ما هو في اعتقادك الأجر الذي تستحقه؟ وأسئلة أخرى يلزمك سنوات من العلاج النفسي لتجيب عنها.

يبدو أنني قد أخفقت في الامتحان، لأنه استعمل أجوبتي كنماذج للأجوبة التي يجب تحاشيها.

قال رشيد إن المقررات الدراسية لا تضع نصب أعينها المستقبل المهني للطالب، ولا تؤهله إطلاقا لخوض معركة التشغيل - وأنا أحسن مثال على هذا - برامج تقتل ما تبقى فيك من روح المبادرة وقد عملت صرامة والدك على وأد الحيز الكبير منها. لذا أنت تنتظر الوظيفة الحكومية، تنتظر مكتبا تشيخ وتموت على كرسيه بعد أن يغشاك غبار الملفات والسجلات الإدارية وتكتسب عادات ثابتة ثبوت إيمانك. لكن الإدارة ذاتها قد تعبت من الموظفين القدامى فأحالتهم على التقاعد النسبي الذي سمّته بكل ذكاء: المغادرة الطوعية أو الإرادية بعد أن اشترت كل الإرادات بتعويضات تفوق أحلام المتقاعدين البسيطة. بخلفية إخلاء

الأماكن للشباب العاطل. لكن إدارتنا الطاعنة في الرتابة لا هي قادرة على استيعاب ما تراكم في الماضي ولا على تجديد يفرضه الحاضر. لهذا على الشباب أن ينسى الوظيفة الإدارية ويعانق المبادرة الفردية وخلق فرص المقاولات الخاصة.

يبدو أنني شخت قبل الأوان، أعيش في عالم تمّ تجاوزه على كل الأصعدة، الدراسة، الشغل، والحب. عالم كل شيء فيه يُباع ويُشترى. مجتمع يحكمه الإشهار. لا عجب في كون شركات الإشهار تعتمد على المحللين النفسانيين، ففي مجتمع الاستهلاك التعاسة هي المحرك الأساسي، النقصان هو الذي يدفعك للشراء، نقصان ما هو جوهري.. ما لا يشترى.

كلما كبرت الحاجة إلى الذي لا يشترى كبر استهلاكنا للتفاهة.

الاستهلاك يُغنينا عن التفكير.. لا وقت للتفكير. نستهلك آخر الثياب، آخر السيارات، آخر الهواتف المحمولة، آخر مواد التجميل، آخر الأغاني، آخر الأفلام، آخر عارضات الأزياء.. لا مكان للقديم. كل شيء له تاريخ صلاحية محددة.. حتى الحب، حتى الإنسان.

قاطرة الاستهلاك تسرع، وتسرع بلا هوادة، تكتسب كل مرة سرعة أفدح. وقد أصبح نَفسنا قصيرا من فرط الركض وراءها.

وحدها إعلانات الإشهار تجدد نفسها لتخنقنا أكثر. تحت ثقل القروض: قروض للدخول المدرسي، قروض بمناسبة رمضان، قروض للعيد، قروض للعطلة الصيفية، قروض للزواج وقروض

للطلاق، والقرض الأكبر، الأكثر وفاء، قرض السكن: يكبر مع أطفالك، يعيش معك إلى آخر نفس.. لينضم إلى الورثة بعد أن يسلمك لشبرين من تراب.

ما زال صوت المكوّن يصدح في أرجاء المكان، وهو يختم الحصة بحماسة من يبوح لك بسر الوجود:

«كي تبيع نفسك بطريقة جيدة عليك أن تتمكن من تقنيات التواصل اللغوية، حيث تبدو صادقا في كل ما تقول. بصيغة أخرى: أن تبيع نفسك بطريقة جيدة يعني أن تكون صادقا مع نفسك.. تبيعها بكل صدق».

خرجت مقتنعا بصدق الباطل كما يقتنع الشعراء الملاعين بجمالية القبح.

9

عاد عزيز من مراكش بحالة نفسية سيئة، وقد حسبته غارقا في العسل. أصر على دعوتي للعشاء، وكانت به رغبة دفينة للتفريغ كما لو أجريت له عملية شحن عاطفي. لم يكن هو عزيز الذي عرفته خلال سنوات الصبا أو ذلك الذي غادرني محلقا بأجنحة الغرام يغريه سحر الغروب بممر النخيل.

سألته عن ليلى ممهدا له طريق البوح. أجاب متذمرا:

- كلهم «أولاد القحبة» نساء ورجالا وكأن الثروة مرادف للسفالة، ما عشته خلال هذه الأيام كان خياليا ولا ألف ليلة وليلة.

- ألم تكونا بمفردكما؟

- كلا، كنا في ضيافة أحد أصدقاء ليلى: فرنسي يدعى فرانسوا، جعل من رياض قديم تحفة تفوق الخيال، فندق خاص جدّا يسمونه «رياض شهرزاد». يقول إنه مشروع يؤمّن له تقاعدا مريحا في أجمل مدن العالم. وهو طبعاً ينتقي زبناءه بدقة.. يشترط فيهم الثراء الفاحش والفحش الثري. تحس نفسك بين أحضان الجنة وقد تخطيت الحساب، ونجوت من العقاب، وكل شيء أصبح متاحا ومباحا.

أشعل سيجارة وهو لم يتذوق شيئاً بعدُ من الأطباق الشهية التي رصها النادل أمامنا قبل أن يسترسل:

- كان الشباب والجمال في خدمة المال. لم أكن عشيق ليلى، كنت أحد الشباب والشابات المدعوين لخدمة أسيادهم. وطبعا أنت لا تختار، فكوني مع ليلى لا يمنع أي سيدة من صديقات فرانسوا، تبين لها تحت وطأة المخدر أو الشمبانيا أنني مطابق لذوقها، أن تمد يدها، بكل ثقة، إلى سحّابة بنطلوني. وطبعا، لا أستثني بعض الرجال المثليين أو ثنائي الجنس.

سألته وقد فقدت الشهية أنا أيضا:

- وماذا كان رد فعل ليلى؟

- ليلى تستمتع بكل ثانية، تضحك ملء شدقيها كلما رأت أحدا يقترب مني، تقول لي: «أنت حر، يمكنك الدخول في تجارب جنسية جديدة، مع من شئت من النساء أو الرجال، إن كانت هذه رغبتك، كما يمكنك الرفض بلباقة»..

وأضاف:

- وطبعا هي مارست حريتها طولا وعرضا.. منذ أن اكتشفت أن لها نقطة «ج» أصبحت في حالة هيجان دائم.

- نقطة ماذا؟

- نقطة «ج» هي الموضة الجديدة. تصور يا سيدي أن البشرية انتظرت عشرين قرنا ليكتشف الطب أن للمرأة نقطة في مهبلها توجد على بعد سنتيمترات قليلة من الفرج هي التي تمنح الذروة خلال ممارسة الجنس. وقد أصبح جراحو التجميل يقومون بعملية صغيرة عبارة عن حقن مادة معينة في هذه النقطة بالذات لجعلها أكثر بروزا وأكثر حساسية. خاصة عند النساء اللواتي بسبب سن

اليأس أصبح لديهن ارتخاء في عضلات المهبل. وليلى خضعت لهذه العملية قبل رحلة مراكش مباشرة لهذا كانت سعيدة كمراهقة اكتشفت اللذة الجنسية للمرة الأولى. واستمتعت بلعبة التبادل.

- تبادل ماذا؟

- من أي قارة جئت يا أخي؟ تبادل الشريك الجنسي بين زوجين مختلفين.. كنت على علم بهذه الممارسة التي يتعاطاها بعض الأزواج الشرعيين بأوروبا في نوادٍ ليلية خاصة، لكسر الروتين الجنسي. ولكن لم أكن أتصور أننا قد وصلنا إلى هذه الدرجة من التفتح.

- هل كان معكم أزواج شرعيون؟

- أجل، مثل فرانسوا وزوجته المغربية وآخرون. لكن الرجال يفضلون دخول اللعبة مع عشيقاتهم والنساء مع عشاقهن.

لم أستوعب كيف ينزعج عزيز من هذه الممارسات، هو الذي اختار بقناعة الدخول في هذا العالم.. ألم تقدم له ليلى صديقتين ليضاجعهما وقبِل بذلك؟ كيف يندهش هو الذي تعاطى كل الانحرافات، ويعتبر نفسه دون جوان الزمن الجديد؟ لا بد أن ثمة سرّ في الأمر.. سألته بفضول:

- ما الذي يزعجك بالضبط؟ أهو إحساسك بأنك كنت بهذا الوسط «أداة جنسية» لا أكثر، أم يزعجك أن تضاجع ليلى أحدا آخر غيرك؟

بدا واضحا أنه لم يكن ينتظر مني سؤالا مباشرا كهذا. أطرق قليلاً وهو يلاعب الكأس بيده، ثم أشار إلى النادل ليأتي بورقة الحساب، وقال لي:

- لنتحرك.. تعال نذهب لميمي.

في طريقنا إلى الحانة لم ينبس بكلمة وكأن سؤالي أجبره على التفكير في شيء لم يكن ليعنيه.

تنفتح أسارير ميمي مثل زهرة عندما تراه.. وترتعش أنوثتها.

تنسى كل من في الحانة وتتفرغ له، من الواضح أنها مغرمة به هي الأخرى.

لكن عزيز الليلة لم يكن مزاجه يسمح، فطلب منها أن تتركنا لوحدنا.

تذكرت الأستاذ إدريس الرسام، انتبهت إلى أن مكانه كان شاغرا. أحسست كأن شيئاً ينقص الحانة.

خيَّمت فترة صمت طويلة قبل أن ينبس عزيز:

- قالت لي ذات مرة: «الرجل الشرقي يتعامل مع المرأة كسلعة لها مدة صلاحية محدودة». أتساءل الآن يا صاحبي، بعد كل ما عشته بمراكش، من منا السلعة؟ وما نحن إلا سلع تجد يوما مستهلكها.. واحد يستهلكك باسم الحب، وآخر يستهلكك باسم المال، والباقي يستهلكك باسم الأخلاق أو الفساد.. لا فرق يا صاحبي لا فرق.. الفساد عند البعض يعتبر أخلاقا عند آخرين. أتعلم؟ وحدها الطبقة المتوسطة، إن كانت ما زالت موجودة في مجتمعنا، تتمسك بما تبقى من مبادئ وأخلاق وقيم أما الطبقتان العليا والسفلى، فالمال (كثرته أو انعدامه) ينجح في قتل كل الأخلاق.

ثم نهض واقفا في توازن هش، ورفع كأسه عاليا وهو يصيح:

- ولتسقط الأوهام.

ردد كل من في الحانة بعده فيما يشبه الكورال: «لتسقط الأوهام».

أفرط كثيرا في الشرب ودعا كل من في الحانة للشرب على حسابه. وجدت صعوبة في إخراجه من الحانة.. تدخلت ميمي قائلة: «دعه يقضي الليلة معي». لكنني أصرّيت على مرافقته إلى بيته، حيث ارتمى في فراشه كجثة هامدة وبقيت أنا، وقد جفاني النوم، أجتر أحداث الليلة على أريكة في صالة الجلوس.

10

نمت طوال النهار، فتحت عينيّ على صوت أمي تخبرني بأن صديقي مصطفى «مول الطاكسي» بانتظاري. لدي رغبة في تغيير أفكاري التي استحوذ عليها عزيز وعالمه الشبق. نهضت برأس أثقل من حافلة نقل عمومي، ارتديت ملابسي وخرجت من غرفتي لاستقبال مصطفى.

كانت أمي التي تحبه، قد أعدت له الشاي.. فهو يستحق، على حد قولها، لأنه لم ينتظر الوظيفة واختار أن يشتغل سائقا لسيارة أجرة لدى أحد المحتكرين «للكَريمات» في انتظار أن يحلها ربه. تفضله على كل أصدقائي. هو خريج شعبة الفلسفة، نفعه تفلسفه في اعتبار الشغل وسيلة وليس غاية في حد ذاته.. سجل أطروحة للدكتوراه في موضوع «مفهوم الأخلاق عند سبينوزا» وقبل بأول عمل صادفه.

- أهلا بمن رضيت عليه أمي، هل معك الطاكسي؟

- نعم، أخذت ساعة للاستراحة، وجئت لأدعوك إلى فنجان قهوة.

- جئت في وقتك.

أمام الطاكسي رجل ينتظر:

-هل هذا الطاكسي يشتغل.

أجاب مصطفى بحدة:

- لا ، ليس الآن.

لكن الرجل لم يكن من النوع الذي يستسلم بسهولة:

- الله يرحم لك الوالدين، إذا كنت نازلا إلى درب السلطان خذني معك فأنا أنتظر طاكسي منذ أكثر من نصف ساعة.

تدخلتُ قائلاً لمصطفى:

- خذه فلن يزعجنا في شيء، ثم أنت لست في غنى عن الزبائن.

كان الزبون ثرثارا لدرجة أننا لم نستطع تبادل جملة واحدة بيننا. شرع في الكلام دون مقدمات:

- تصوروا نسيت أن أشتري ما أوصتني به زوجتي مع أنها عاقبتني البارحة بامتناعها عني.. بنت الحرام.. وهذه بالتأكيد وصية أمها العقرب.. تريد ثوبا لتخيط جلبابا جديدا لرمضان.. بيننا وبين شهر رمضان أكثر من أربعة أشهر، لكن طلباتها لا تنتهي. ولو تأخرتُ في تلبيتها تقول لها أمها «أهجريه في الفراش» الرجال كلاب. لولا ضيق الحال لتزوجت عليها لأعلمها كيف تهجر الرجال.. البنات في الشوارع كالذباب يحط على كل شيء وبمائة درهم تقضي الغرض وترتاح لولا الخوف من ربنا.. بنت الحرام.. تبيع لي حقي الذي شرعه ربي.. آخ من هذه الدنيا.. قال أسيادنا الأولون «الدنيا بحال لَمْرَه إلى بْغاتك حَلّاتْ خزامْها وغْطاتَكْ».

كان كمن نزلت عليه آذان صاغية من السماء.. يحكي ويحكي بسرعة تسابق السيارة خائفا من أن يصل قبل أن يفرغ علينا جعبة مشاكله مع زوجته. وأنا الذي ما زال يحاول أن يغسل فكره من حكايات الدعارة التي أغرقني فيها عزيز ها أنا أستمع رغم أنفي لدعارة مشروعة. يصبح فيها الجنس هو السلاح الوحيد الذي تضغط به الزوجة على زوجها. تستعمل جسدها للحصول على مطالبها.. وأمها تزكي ذلك وتصادق عليه.

وصلنا إلى درب السلطان، فنزل الزبون الثرثار أمام قيسارية الحفاري.

قلت مخاطبا مصطفى:

- أظنك لا تعرف الضجر في عملك هذا.

- أبدا، فكل زبون حكاية وتسمع وترى ما لا يخطر لك على بال. تصور مثلاً، اليوم بعد الظهر ركبت معي زبونة في مقتبل العمر وعندما سألتها أين تريد الذهاب أعطتني عشرين درهما وطلبت مني أن ألف الشوارع العريضة حتى يتمم العداد العشرين درهما، ثم أعود بها إلى نفس المكان الذي ركبت منه. لم أفهم لكنها أشعلت سيجارة وقالت: أريد فقط أن أدخن. اليوم عطلة، ووالدي بالبيت وأنا لا يمكنني التدخين أمامه. سألتها: ولو سأل عنك؟. أجابت: هذا وقت قيلولته، ثم إن أمي على علم ببليتي وستتدبر الأمر. قمنا بجولة التدخين هاته ونحن صامتان، وهي تتلذذ بسيجارتها وتطرب لأغنية قطار الحياة لعبد الهادي بلخياط. آه، نسيت أن أخبرك بأنها أعطتني الشريط وطلبت مني تشغيله.

- عليك أن تدوّن كل هذا يا سبينوزا أو ربما كان الأجدر بك أن تختاره كموضوع لأطروحتك: هكذا تكلم مول الطاكسي.

- والله أنت على حق فالطاكسي مكان يليق للأبحاث الميدانية في علم الاجتماع.

يقلّ كل شرائح المجتمع، ثم لسبب ما يفتح شهية الجميع للبوح. ولكل وقت زبناؤه: عندك زبائن الصباح الذين يذهبون إلى عملهم وهم في عجلة من أمرهم. وعندك زبائن بعد الظهر ممن يذهبون للتسوق وهم خاصة من الجنس اللطيف. وعندك زبائن آخر النهار العائدون من الشغل والذاهبون إلى مواعيد غرامية على الكورنيش أمام منظر الغروب. ثم زبائن أول الليل، وزبائن نصف الليل، وزبائن آخر الليل وزبائن أول الصباح وهؤلاء أصناف تربح معها الكثير وفي نفس الوقت تخاطر بحياتك.

قلت إحك لي شيئاً طريفا حدث معك بالطاكسي:

ضحك قبل أن يبدأ في الحكي:

- ذات مرة، ركبت الطاكسي امرأة عجوز. أخرجت من صدرها ورقة مطوية إلى ما لا نهاية، مَدَّتها إليّ قائلة: «من فضلك خذني إلى هذا العنوان». فتحت الورقة وإذا بها تعويذة. توجهت نحو العجوز قائلاً: «يا مّيمتي لا يوجد أي عنوان بالورقة أظنها (سْبُوبْ)». أخذت تولول: «يا ويلي يا ويلي راني تْبَخَّرتْ بالعنوان».

ضحكنا مطولا على بعض الطرائف من هذا النوع.

كان الحديث مع مصطفى يرفع من معنوياتي لصدقه وعمقه،

فهو ما زال يتشبث بطموحات طالب العلم الذي يرى في الثقافة الحل الوحيد للنهوض بالمجتمع. فقد سجّل والدته في دروس محو الأمية، واستطاع أن ينقل فيروس المطالعة إلى كل أفراد أسرته.

جلسنا في مقهى «الفداء» بساحة السراغنة: القلب النابض لمدينة الدار البيضاء.

تقدم نحو طاولتنا طفل يتسول نُهَرَه النادل، ما لبث أن تبعه طفل آخر يمسح الأحذية. تذكرت، وأنا أشير إليه بيدي بأن لا داعي لتلميع حذائي، ما قاله المكون عن الحذاء الذكي. فسردت لمصطفى حكايتي مع حصص التكوين التي نصحني بها رشيد. استمع إلي مليّا قبل أن يقول:

- العالم يحتاج إلى نوع «الذئاب الجدد» (نطقها بالفرنسية) من أمثال رشيد، لكن لا يمكنه الاستغناء عن المثقفين من أمثالك، أنا من رأيي أن تشتغل بجد على أطروحتك، فنيلك لشهادة الدكتوراه يؤهلك لمنصب في الجامعة كأستاذ مساعد وقد تهتم بالبحث العلمي. أنت لا تمتلك مواصفات التاجر الناجح الذي يدوس على كل شيء في سبيل الربح. لست «كِيلرْ» كما يقال في أوساط رجال الأعمال والاقتصاد.

- لكن كيف أصبر سنوات أخرى بدون شغل؟ ثم تلزمني كتب ومراجع..

- ها قد مرت سنتان تقريباً منذ تخرجك. الوقت يجري يا عزيزي المهم أن تكون مقتنعا بل مؤمنا بما تريد.

أحسست بأنني فعلا أصبحتُ أجهل ما أريد، الإحباط شل إرادتي وقدراتي الفكرية.. أصبحت كمن كان واهما ثم اصطدم بالواقع.. واقع جديد لا قبل له به. أحسُّ بغربة في البيت ومع الأصدقاء. تذكرت عزيز، قلت:

- لقد ظهر عزيز، هل رأيته؟

- نعم، لا أدري ما يفعله بالضبط لكنني لا أحب الطريق الذي يسلكه، أتعلم؟ الفراغ عدو كبير يعطيك الإحساس باللاّجدوى مما يصيبك بالإحباط، ثم بالاكتئاب.. والاكتئاب يولد فيك نزعة انتحارية تدفعك إلى الانحراف أو ربما الانتحار.. تُدمّرُ نفسَك بنفسِك لأنك غير راض عنها. لذا عليك أن تملأ الفراغ بالدراسة في انتظار أن تجد عملا.

جميل ما يقوله مصطفى لكنه يجهل ما أنا فيه من ضياع، وأن وحده الاستقلال المادي باستطاعته أن يعيد إليّ إرادتي من جديد. هي حلقة مفرغة: تحتاج إلى شغل لتحس بجدواك، وإيجاد الشغل يحتاج ثقة في النفس - وحذاء ذكيًا - كما قال المكوّن، والثقة في النفس كما الحذاء الذكي لا يتأتيان بدون شغل.. وهكذا دواليك. ثم كيف أعود للدراسة على حساب أختي التي تنتظر أن أحمل عنها عبء الأسرة لتفكر في حياتها الخاصة؟

انتهت فترة استراحته. أراد أن يعود بي إلى البيت، لكنني فضلت أن أظل في ساحة السراغنة.. أتيه وسط زحام الباعة المتجولين علّني أتخفّف من بعض الإحساس بالفشل.

11

الغيرة، هذا السرطان الذي يقيم خلسة في الأحشاء، ينمو شيئاً فشيئاً، وكالأورام الخبيثة يستفحل قبل أن يقضي على صاحبه..

هل هو مرادف للحب أم مفترس له؟

قدر الإنسان أن يحب المستحيل.. أن يكون أسيرا لمن حرّره.

هكذا أصبح عزيز، زير النساء، أسير ليلى.. المرأة التي حرّرته من كل قيود الحب.

منذ عاد من مراكش، التي ذاق فيها طعم الحرية الجنسية المطلقة، وأحس باستقلالية ليلى العاطفية تجاه العالم، أصبح هاجسه أن يوقعها في شراكه.

ربما كان يعتقد قبل ذلك بأنها ملك له، وأن فارق السن بينهما يجعل منه عشيقها الوحيد المشتهى الذي لا يمكنها الاستغناء عنه، حتى وإن كان يتقاضى ثمن إمتاعه لها. وربما رأى في دفعها الثمن طريقة تضمن بها هي استمراريته معها. لكن ضيافة فرانسوا جعلته يشك في نفسه وفي قدراته الخلاقة. جعلته يلمس حدود عالمه الجنسي.. ما أضيق عالمه الجنسي!.. يفتقد للتخيل وللإبداع.. لا بد أن يطور تقنياته، أن يغمرها بكل النعم، أن يشفي غليلها.

استغنى عن الزبونتين الأخريين ليتفرغ لليلى. اشترى كتب الجنس والأفلام البورنوغرافية وأصبح يدمن مواقع الجنس على الانترنيت. ولو اعتذرت ليلى عن موعد أو أجلته يغمره إحساس بالضياع المطلق. كمدمن حقيقي، أصبحت ليلى مخدره.

أهو الحب أم هو نوع من الهوس الجنسي؟ أخاله هو نفسه لا يعلم.

يرفض أن يبوح بحبه لها ويصرّ على أن العلاقة جنسية لا غير. وكطريقة لا واعية للانتقام أصبحت طلباته تزداد يوما بعد آخر. طلبات مادية لا معنى لها، وأخرى عاطفية خارجة عن اتفاقهما المبدئي.

أصبح يصر على مصاحبتي له كلما ذهب لزيارة ليلى، كمن يبحث عن شاهد على امتلاكه لشيء يخاف في قرارة نفسه من فقدانه.

اعتذرت مرات، لكن شيئاً في داخلي يحثني اليوم على القبول.

وصلنا شاطئ بوز، استقبلتنا ليلى بابتسامتها المعتادة التي تشبه إعلانات معجون الأسنان. صوّبت نحوي نظرة لعوبا وهي تقول بصوت خافت:

- تفضل إلى الشرفة هناك من ينتظرك.. حاول أن تواسيها. اليوم ذكرى غرق ابنها الفقيد.

وانصرفت إلى الداخل ساحبة عزيز في أعطافها.

اخترقتني قشعريرة وأنا أرى بسمة جالسة قبالة البحر وكأسا بيدها. لم تنتبه لمقدمي. أخذتُ كأسا ملأتها، وجلست بجانبها دون أن أنبس ببنت شفة احتراما لحزنها.

اكتفت بإيماءة من رأسها. أخرجت سيجارة من علبتها، أسرعت أنا لأشعلها. أخذت نفسا، وجاء صوتها حزينا وخفيضا كأنه قادم من أعماق البحر:

- عندما تفقد فلذة كبدك فأنت تفقد بعضك أو كلّك إلى الأبد. تصبح إنسانا آخر أو آخر يشبه الإنسان. تكره الحياة التي تشبثت بك رغم أنفك وسرقت منك أجمل ما أنجزته فيها.. الحقيقة الوحيدة التي تؤمن بها.. لأنها جبلت من أحشائك.. من دمك. يأخذ الموت منا امتدادنا الأجمل، يأخذ غدنا وتترك لنا قبح الحاضر.. وقسوة العيش الذي يبتلع مستقبلنا كوحش شرس.

سكبت علي نظرة ساخنة وهي تضيف بنبرة تئن من الحنان:

- كان خجولاً مثلك، وطيبا مثلك..

ثم استأنفت في تأمل:

- نحن مؤهلون نفسيا لفقدان من سبقونا إلى الحياة.. آباؤنا، أمهاتنا، أجدادنا.. يصبحون في سن لا يُنتظر منها شيء. لكن فقدان أبنائنا.. رحيلهم قبلنا يسقط كمقصلة.. مقصلة تحولك بين ليلة وضحاها من إنسان بشري إلى إنسان آلي يأكل ويشرب ويتكلم ويتحرك، لكنه عاجز عن الإحساس كمن يعيش تحت وطأة مخدر.

تحس بأن وجودك خطأ.. لأن موته خطأ.

غرقت في صمتها، أشعلت سيجارة جديدة، وظل صدى الحزن بصوتها يملأ الفضاء، يفيض في البحر كمد أسود، وينساب في داخلي.

أود لو أنطق بشيء.. أي شيء.. لكن من أين لي بكلمات تجفف هذا النزيف؟

انتصبت واقفة وظلت للحظات، لا أعلم كم دامت، وهي غارقة في البحر.. ربما تعاتبه، ربما تسأله عن ابنها الذي أخذه منها في عز عنفوانه. وأنا أرقبها، أرقب هذا الجمال الجارح المجروح الذي بقدر ما أعطته الحياة أخذت منه، وبقدر ما كنت أغبطه أشفق الآن عليه.

ضمّت إليها ذراعيها، كما في لقائنا الأول، في حركة آلية وكأنها تحضن البحر برمته. لم يكن الجو باردا لكنني، كما في لقائنا الأول، أخذت سترتي وأسدلتها على كتفيها. وقبل أن تقول شيئاً ضممتها من فوق سترتي من الخلف. لم تمانع.. دسست وجهي في شعرها الأسود الداكن.. أحسست بكل جسدها يرتعش بين أحضاني.. ضممتها بكل طاقة الحنان الذي غمرني حينها.. ثم بدأ جسدها يهتزّ ويهتزّ في نوبة بكاء صامت. ودون أن أدع جسدها ينفلت من بين ذراعيّ، التفت حولها وحضنتها من الأمام.. أناخت برأسها كطفلة على كتفي وتركت سيل الدموع يجرفنا معاً.

ليت الزمان يتوقف عن ركضه حتى تفرغ كل حزنها بين أحضاني..

لم أكن من الرجال الذين يمتلكون نعمة البكاء، لكن قلبي كان يذوب مع كل هزة من قدها الرفيع.

يا لهذه الحياة، تعطي بيد وتأخذ بأخرى، ونضيع بين عشوائية البسط والقبض هذه.. كدمى تفككنا وتركّبنا من جديد، تهشّمنا على هواها، أتراها تستغل حبنا لها لتميتنا مرات؟

كم موت يلزمنا لحياة واحدة؟

ما زلنا واقفين كأشجار تقاوم الريح، واقفين كصمود، كانتظار.. يهزأ البحر الممدد من وقفتنا، ونلتحم ضده.

هدأ الجسم الدافئ بين أحضاني هدأة المُنهك. رفعت عينيها نحوي في اعتذار.. غمرتها بنظرة امتنان.. مررت يدي على شعرها وحضنتها من جديد.. وضعت قبلة حارقة على جبينها، وأنا أسمع خطوات عزيز وليلى تعلن قدومهما المرح.

12

لقائي ببسمة جعلني في حالة غريبة تراوح بين الفرح والحزن.. بين التأمل واللامبالاة.. أصبحت على مسافة قصية من العالم، أقضي مجمل الوقت في التسكع، لا أطيق الجلوس في مقهى، ولا الحديث إلى أحد. أعيد شريط احتضاني لها ودموعها تبلل كتفي، فيعتصرني الحزن على ولدها الفقيد الذي لا أعرفه وكأنني أنجبته، والحزن لحزنها وكأنني توأمها.

دخلت البيت منهكا وبرأس متصدع، تهاويت على السرير، لم يكن الليل قد أرخى سدوله بعد، وإذا بعزيز يقتحم علي غرفتي متجهما:

- أين غطست يا أخي؟ أبحث عنك منذ ثلاثة أيام فلم يلمحك أحد في المقهى. ما مشكلتك؟

- شيء من التعب فقط.

- عندي لك هدية ستضع حدّا لاختفاءاتك.

وأشار لعلبة في يده.

- هدية؟ بمناسبة ماذا؟ ثم منذ متى كنت تجود عليَّ بهدايا؟

أخرج من العلبة هاتفا محمولا وجهاز شحنه وهو يقول:

- لست أنا من يهديك إياه، بل ليلى، سألتني إن كان لديك هاتف نقال، وعندما أجبت بالنفي، أعطتني هذا هدية لك.

- ما الذي يدفع ليلى للاهتمام بي إلى درجة شراء هدية لي.

- لم تشترها.. لقد فازت بهذا الهاتف في قرعة إحدى الحفلات التي يذهب ريعها لجمعية خيرية.. مع اشتراك مجاني لمدة سنة.

- حسناً، وما حاجتي أنا إلى هاتف محمول؟ هل لأطمئن على سير العمل بشركاتي المتعددة؟

- لتطمئن عليّ، ولأطمئن عليك كلما اختفيت.

ثم أضاف برعونته المعتادة:

- كما يمكنك اعتباره تأشيرة غرام.. لقد جئتك كذلك - وهذه هديتي الخاصة - برقم هاتف بسمة. من يدري قد تود الاطمئنان عليها هي أيضا.

ثم وضع في استخفاف مصطنع ورقة على الطاولة.

ارتبكت وكأنه نبهني لشيء فيه خلاصي ومنحني إذنا بالدخول.

قلت متلعثما:

- لا، لن أتصل بها، هل جننت؟ لنفرض أنها مع زوجها. لا أريد أن أسبب لها أدنى أذى.

فهم من جوابي أنني لا أرفض الفكرة كليًا، فضحك وهو يقول:

- الأذى الفعلي هو ألا تتصل بها.

انصرف عزيز تاركا لي ما بوسعه تحقيق رغبتي السرية في تواصل أحلم به.

بقدر ما كنت سعيدا استحوذ عليّ الخوف وأنا أمسك بيدي الهاتف النقال كجمرة تنقل حرارتها للقلب وتلهب الجسد.

أخذت الورقة التي عليها رقم بسمة من على الطاولة بأنامل رعشى. ورحت أرتشف الأرقام رقما رقما، إلى أن حفظتها عن ظهر قلب.

مر يومان وأنا أقلب الهاتف بين يدي، أضغط الرقم ثم ألغيه.. أضغطه ثم ألغيه، وعزيز يكلمني بين الفينة والأخرى سائلاً إن كنت قد أقدمت على الاتصال بها، إلى أن أثار أعصابي. وعندما رن الهاتف، ذات منتصف ليل، وأنا على وشك أن أخلد للنوم، نهضت متوترا وأجبت بعصبية:

- كفاك تحرشا يا أخي، أنا لست طفلا..

وإذا بضحكة تقاطعني لتخترق الحواس قائلة:

- أعلم أنك لست طفلا وهذا شيء يسعدني.. وآسفة إن كنت تتعرض للتحرش الهاتفي.

- بسمة؟ معذرة.. كنت أحسبه عزيز.

- ذاك ما فهمت. أخذت رقم هاتفك من ليلى.. أرجو أن لا أكون قد أزعجتك. أود أن أشكرك على لقائنا الأخير، لقد استطعت أن تخفف عني الكثير وأريد أن أراك.

- نعم.. طبعاً، طبعاً..

وهكذا تفاديا للظهور معاً في الأماكن العامة، اختارت بسمة أن نتقابل في أحد الفنادق الفخمة مباشرة في غرفة تسبقني إليها.

13

ونحن بين جدران غرفة فخمة تفتقد لخصوصية، أمام سرير عريض، وأنا كعريس في ليلة دخلته أحار من أين وكيف أبدأ، وهي كفاكهة شهية.. دعتني بكل أدب إلى الجلوس على كرسي بجانب النافذة، وجلست أمامي مفتتحة اللقاء بتوضيح بدا لها مهمّا.. وكنت في غنى عنه:

- لا بد أن أشرح لك وجهة نظري: أنا أفضل غرفة الفندق لأسباب أمنية إن صحّ التعبير. لا أبحث عن الجنس ولن أمارسه مع أحد غير زوجي، لكنني أحتاج إلى صديق.. إلى أذن صاغية.. إلى كتف حنون.. إلى عاطفة سامية.. كي لا أموت حزنا.

قلت متلعثما بصوت خافت، وقد نزلت حرارة حواسي إلى ما تحت الصفر:

- طبعاً، أفهم ذلك.

وأنا أردد في نفسي مواسيا إياها:

«الحياة لا تعطي كل شيء. لكَ الحب يا أمين دون جنس كما لعزيز الجنس دون حب».

واصلت بصوت ينضح رقة وفتنة:

- أشكرك على تفهمك، إنني أرتاح للحديث معك ربما لأنك تحسن الإصغاء.

قلت في نفسي: «ذاك لأني لا أحسن الكلام سيدتي».

- ثم اليوم هو عيد ميلادي.. وإن كنت أعتبره كسائر الأيام.

تمتمت:

- كل عام وأنت بخير.

- أحس أن لكل يوم سنّه الذي يُعلق على ملامحنا.. ثمة صباحات نستيقظ فيها ونحن قد راكمنا سنوات إضافية لعمرنا خلال الليل.. نحمل ثقل العالم على كاهلنا، تخذلنا حركاتنا وخطانا المتعبة تأخذنا بثقة إلى حتفنا. وثمة صباحات نستيقظ فيها كالعصافير نغرد من خفة الجسد بنفس صافية صفاء النبع..

كأننا في نهاية المطاف لا نكبر، بل ندخل حلقة العمر كلعبة دائرية.

وقد نمر أحياناً في نفس اليوم، بحسب تقلباتنا النفسية ومزاجنا من كل مراحل العمر. عندما نحب فكلنا صبايا وعندما نتألم فكلنا كهول وكلما تقدم بنا العمر استيقظت الطفولة مجددا في دواخلنا.

صمتت قليلاً قبل أن تسترسل:

- أتعلم لماذا لا ألتجئ لجراحة التجميل؟.. لأنه ليس ثمة من جراحة تجمّل قلبا تسربت إليه التجاعيد، ووحده القلب يهُمّني.

قلت وأنا أتعجب كيف انفكت عقدة لساني:

- ربما، لأنك محظوظة فأنت ما عرفت يوما معنى أن تكون المرأة قبيحة.. وجدت نفسك جميلة فلم يشكل هذا النقص الذي تعاني منه أخريات مشكلة في حياتك.

قالت في ما يشبه التأمل:

- أحياناً يكون الجمال، في حدّ ذاته، مشكلة. يجعل الكل ينظر إليك كصورة جميلة يقف عندها ولا يتساءل عمّا يتوارى خلفها من أحاسيس، من أفكار.. عانيت كثيرا من كوني جميلة. لهذا أستقبل كل عام إضافي بسعة خاطر.. على الأقل يجبر الآخرين على النظر إلي بعمق أكثر.

مضت في حديثها وأنا أنظر إليها بعمق وأصغي بما أوتيت من جوارح دون أن أقاطعها. حدثتني عن ابنها وكيف قضى نحبه غرقا، وهو في الخامسة عشرة من عمره خلال ممارسته لرياضة التزحلق على الماء. لم تكن موافقة على تلبية رغبته في شراء زلاجة مائية، لكن زوجها بعقليته التي تعوض الحب بالهدايا أهداه إياها رغم اعتراضها الشديد، الشيء الذي جعلها تحقد عليه وتحمله مسؤولية موت ابنهما. قالت إنه لولا وجود ابنتيهما لانفصلت عنه، لكنهما مرهفتا الإحساس و لن تتحملا هزة أخرى، وإنها تعيش رغما عنها، تعيش من أجل ابنتيها فحسب. زوجها على الرغم من طبعه الحاد المستبد يحبها ويحاول أن يستعيدها، لكن ما تكسر بينهما لا يمكن إصلاحه على حد قول أم كلثوم:

«وعايزنا نرجع زي زمان، قل للزمان إرجع يا زمان».

كنت أصغي إليها وأنا أحاول أن أصدق أننا معاً.. تجمعنا غرفة واحدة.. فيه سرير واحد.. يبدو أكثر من مريح، وعطرها يعبق في المكان، وأنا لا أستطيع أن أكون أكثر من أذن.

أكبر وأرق أذن عرفها التاريخ..

أذن ولا أذن موزار. تبلع الجسد وتأخذ مكانه. تلتقط أرهف ذبذبة صوتية تنبعث من حضورها الرائع: حفيف فستانها وهي تضع ساقا على ساق، همهمة أناملها وهي ترفع خصلات شعرها الداكن من على جبينها، رفة الرموش وهي تتردد قبل تصويب سهامها نحوي، نبض قلبها الذي يسرع مع كل انفعال ويستقر بعده، ثم أنفاسها، وهي ترمي بالحروف صوبي، أنفاسها خارج الحروف، أنفاسها عندما تصمت قليلاً، وأنفاسها وهي تنفث دخان سجائرها إلى البعيد.

ثم.. ما أطربتني قبل اليوم تنهيدة امرأة.

انتهى اللقاء.

وانصرفت بسمة قبلي بعد أن أعطتني موعدا آخر في فندق آخر.

تاركة إياي مع نفسي.. أقنعها بحب الأشياء غير المكتملة.. لأنها تترك حيزا لاستمرارية الحلم.

14

عدت إلى البيت محمولا على بساط سحري تموِّجه أنفاس بسمة العبقة بعطرها، لأجد في استقبالي أمّي البتول بحضورها الذي يكتسح الأمكنة، وشخصيتها الفذة التي دَفَعَتْ طفولتي وطفولة كل شباب العائلة.

بادرتني بالسؤال قبل السلام:

- واتّا ما زال ما سَهّلْ عليك الله فخْدِيمَه يا لقَاري؟

تدخلت أمي لتنزع فتيل الموقف:

- ذعي مْعاهْ يا أمّي البتول بِفُكْ الله عُقَدْتُه.

- هذا «ثقاف» مْديُور ليك يا وليدي.

أحسست كأنني أعاني من مرض عضال يُستعصى على العلاج، وأن أمّي البتول كعادتها جاءت لتتدخل بمعرفتها، التي يشهد لها بها الجميع، في حل العقد.

أمي البتول هذه شخصية أسطورية، هي أخت جدي من أبي - أي عمة والدي - تدير بيت العائلة بالبادية منذ وفاة زوجها، وتدير أيضا كافة أمور الدوار.

كان زوجها من الأعيان، وبحكم شخصيتها القوية ومواقفها الشجاعة وعزة نفسها استطاعت أن تفرض احترامها على الجميع.

حتى عُقمها لم ينجح في كسر نفسيتها. لقد اختارت أن تزوج بعلها بمحض إرادتها قبل أن يبدي هو رغبته في ذلك. وطبعا كانت الضرة من اختيارها وتحت إمرَتها. وعندما رزقت الضرة بأطفال فإن أمي البتول هي التي تكفلت بتربيتهم واتخاذ القرارات اللازمة بشأن حياتهم.

كانت تفهم في التوليد وفي التطبيب وفي الفلاحة وفي التجارة وحتى في السياسة. وهي من يشرف على إقامة الأعراس والمآتم ببيتها بحكم أنه أفسح بيت في الدوار. وطبعا لا يجرؤ أحد ما على مناقشة معاملتها لأطفال العائلة الذين يخافونها أكثر من آبائهم وأمهاتهم.

كل طفل له معها حكاية خاصة ولم أكن استثناءً.

ما زلت أذكر، وعمري آنذاك عشر سنوات، حين جاءت أمي البتول لقضاء بضعة أيام في بيتنا. اكتشفَتْ خلالها أنني أعاني من التبول اللاإرادي، رغم محاولات والدتي الجادة لإخفاء الأمر عنها، واتخذت قرارها الحاسم لتخليصي من العادة المخجلة.

وهكذا وجدتني أجلس كل يوم خميس مع شروق الشمس ببهو بيتنا. أُقسم أمام أمي البتول على الكسكاس: «وَحَقْ هَاذ البَلْبُولْ ما نبول». أرددها ثلاث مرات. تهمهم هي كلمات غامضة في ثقب الكسكاس، ثم تتجه نحوي قائلة:

- وكُنْ راجل..

فهمت أنه من المفروض بعد القسم الثالث، بيوم الخميس الثالث أن أكف عن التبول في الفراش ليلا. وقلت في خاطري: لا

بد أن أكون رجلا.. وإن كنت لا أتعمد ذلك كما يعتقد الجميع. حتى أنني لا أشرب السوائل مساءً ولا أندسّ في فراشي إلا بعد أن أتبول في المرحاض وأقرأ آية الكرسي قبل النوم. صحيح أني كنت أخاف، وقتها، من «عيشة قنديشة» ومن فئران المرحاض الليلية. لكنني لم أكن قطعا أتعمد التبول في الفراش.

غالبا ما كانت أمي توقظني عندما تنهض لصلاة الفجر لأتبول، وكثيرا ما كانت تجد أنه قد فات الأوان فتتحول ابتهالاتها إلى صراخ: كيف لا يزعجك البلل، ألست بني آدم؟

فكرت ساعتها إن كان حقا يزعجني البلل. الحق أن ما كان يزعجني هو صراخها وسخرية إخوتي. أما البلل فيشعرني بالدفء. لن أخفيكم أنه قد حدث لمرات قليلة.. جدّا، أن أيقظتني رغبة ملحة في التبول لكنني فضلت البقاء في فراشي ليس بسبب خوفي، فحسب، بل لأستمتع بإحساسي بالسيل الدافئ بين فخذي، يذكرني بدفء ماء المسبح عندما تغيب الشمس فنفضل البقاء في الماء لأننا كلما خرجنا منه داهمنا البرد.

المصيبة أنني لم أكف عن التبول بعد القسم الثالث بيوم الخميس الثالث كما كانت تتنبأ أمي البتول بثقتها المعتادة، الشيء الذي جعلها تقرر أن تنتقل إلى درجة أعلى في العلاج مشيرة على والدتي بوصفة الفول مؤكدة أنها «دقة ببطلة»: طلبت مني أن أتبول في وعاء، صبت فيه كمية من الفول وجعلته يطبخ فوق النار. على طريقة «طيّب أوهاري» - بالمناسبة علقت رائحة الوصفة السحرية ببيتنا أسبوعا كاملا - وكنت مطالبا بتقديم هذه الوجبة اللذيذة

لأصدقائي أثناء لعِبنا خارج البيت لينتقل التبول مني إليهم شريطة ألا أذوق منها وإلاّ بطل مفعولها. نالت الوصفة السحرية إقبالا منقطع النظير من قبل أطفال الحي. بالرغم من ذلك لم يتبول أحد منهم، ولم أقلع عن عادتي الليلية.

ومنذ ذلك الوقت وعلاقتي بأمي البتول، التي تكره الفشل، متوترة، خاصة وأن عادة التبول اللاإرادي قد لازمتني إلى غاية بلوغي سن الثالثة عشرة من العمر.

ها هي اليوم عقدت العزم على أن تفك «التّقافْ» عن الشغل. والله وحده يعلم ما تنوي عليه بالتحديد. لا بد أن أُجهض هذا المشروع. لا أعلم كيف أسعفتني الفكرة فقبّلت رأسها وأنا أقول:

- قدومك قدم السّعد علينا يا أمّي البتول، إنني راجع لتوّي من موعد مع مديرة لوكالة أسفار، وسوف أشرع في العمل مع بداية الشهر المقبل.

أطلقت أمي سلسلة من الزغاريد من فرط غبطتها بالخبر بينما اكتفت أمّي البتول بالقول:

- نزغرد في عرسك إن شاء الله.

استأذنت مُولّيا الأدبار، قبل أن تبدأ في التخطيط لمشروع زواجي.

15

اعتدت أن ألتقي ببسمة مرة في الأسبوع، في غرفة أحد الفنادق التي تحرص على تغييرها كل مرة، كما تحرص على تغيير يوم الأسبوع. ولقد راقت لي فكرة التغيير هذه لا لنفس أسباب بسمة الأمنية، ولكن كي لا تكتسب الغرفة ذاكرة.. ليظل كل لقاء بنكهة اللقاء الأول.. كل شيء فيه محتمل.

سألتها ذات موعد عن السبب الذي يجعلها تفضل غرف الفنادق بالذات، خاصة وأنني لا أعتقد أنها أمينة بما يكفي، ثم كان من الممكن أن نلتقي عند ليلى مثلاً أو في مكان آخر. أجابتني ساعتها بأنها تحب غرفة الفندق لأنها لنا وليست لنا.. لأننا نتقاسمها مع آخرين كما نتقاسم دفء الشمس.. لأنها كالحياة نجيئها عابرين نترك فيها شيئاً منا، بعضا من أسرارنا ونمضي. فإحساسنا بالعابرية هو الذي يعطي هذا المكان أهميته.

إحساسنا بالزمن المنفلت هو الذي يحفزنا لجعل كل دقيقة لا متناهية.

حفظت غرف الفنادق سرية علاقتنا التي تطورت شيئاً فشيئاً دون أن تتعدى الخطوط الحمر التي رسمتها لها بسمة.

بسمة الوفية كجلد لزوج تكرهه.

لم أستطع في البداية استيعاب هذا النوع من الوفاء، لكنني أدركت مع معرفتي لطريقة تفكيرها أنها وفية على طريقتها الخاصة..

وعيتُ أن الوفاء نسبي كذلك.

كان يحدث أحياناً أن تستلقي على السرير، وتطلب مني أن أستلقي بجانبها. تضع رأسها على صدري، ونتجاذب أطراف حديث لا ينتهي. وأحيانا أخرى تطلق العنان لدموعها ونحن صامتان نستمع إلى موسيقى شجية.. ملتصقان إلى أن تفرغ من الدموع.

كان الحنان مسموحا والشهوة محظورة.

كانت القبل مباحة والمضاجعة ممنوعة.

قالت لي يوما: «القبلة فعل حب بدليل أن العاهرات لا يقبلن زبائنهن».

كانت ثقتها بي كبيرة وهذا ما جعلني أحرص على استحقاقها.. وقد كلفتني شهامتي الكثير.

أي رجل عادي يعشق امرأة ويشتهيها حد الهوس يتمدد بجانبها على السرير بثيابهما، يضمها بحنان ويقبلها ضابطا أعصابه، كابحا جموح فحولته، كي لا يفقد ثقتها.. كي لا يفقدها؟

أي برهان حب أكبر من هذا؟

وأي عذاب أعذب من هذا؟

لابد أنني إنسان غير عادي أو ملاك.

كانت لقاءاتنا تخلف لدي إحساسا بالسّمُوّ، بالإشباع الروحي.. كمتصوّف يرقى بحبه المتعالي، عبر مدارج العفة، عن كل شهوات الدنيا إلى أبعد سماء.

أحسِ براحة معتنق لفلسفة «الزن» وهو يتحكم في نزواته الجسدية. أتغذى بالحنان، بالحب، بتواطئنا، بسرنا اللذيذ.

تقول إن الإحساس بالذنب يفسد كل جميل. ولو دخل الجنس علاقتنا لدمرها.. وحطم نفسيتها الهشة.

لهذا كانت تعيش علاقتنا كحديقة سرية تلِجها بحذر، تعتني بالزهور، تطعم العصافير، تقلم الأشجار، وتسقيها دموعها. تقول:

- أليس هذا أحسن علاج نفسي تقدمه إلي أيها الطبيب العزيز؟

أنا الطبيب، المريض بها لو كنتم تعلمون..

أصبحت أشبع برائحة الطعام، أسكر برضابها وألتحف رضاها عني.

في الماضي أحببت أحلام على الورق..

والآن أحب بسمة حباً عذرياً..

وكأن قدري أن أحب نساء مستحيلات، لن يكن يوما لي.

16

استيقظت هذا الصباح على نقرات خفيفة على باب غرفتي، كانت الساعة لم تتجاوز بعدُ الثامنة. دخل مصطفى حاملا حقيبة كتبه بحيوية وانتعاش:

- صباح الخير يا كسلان، جئت لأقاسمك فطورك وآخذك معي إلى المكتبة.

- صباح الخير، ولم المكتبة بالضبط؟

- حتى لا تفقد هويتك. ثم إنني أحتاج إلى رأيك في مسودة أطروحتي قبل أن أسلمها للأستاذ المشرف.

- شكراً على ثقتك، لكن أتظن أن بوسعي إفادتك في شيء؟

- طبعاً وإلا لما لجأت إليك، بالمناسبة خذ معك بطاقتك الوطنية وصورة.

بعد الإفطار، الذي اجتهدت أمي في إعداده أكثر من العادة، اتجهنا إلى مكتبة الملك آل سعود على الكورنيش. سجّلني مصطفى بمكتب الاستقبال، حيث تسلمت بطاقة الانخراط.

قضينا زهاء الثلاث ساعات ونحن نقرأ ونناقش ما حرره مصطفى خلال سنتين. دعاني بعدها إلى الغذاء، قائلاً بأنه يود مفاتحتي في موضوع يهمنا معاً.

أعادتني هذه الجلسة لأجواء الدراسة وأحسست بشيء من الحنين إلى أيام التحصيل.

ونحن بالمطعم بدا فجأة مرتبكا وهو يبحث داخل جوفه عن كلمات مناسبة قبل أن ينطق:

- أود أن أصارحك بإعجابي بأختك فاطمة.

تردد هنيهة ثم أضاف:

- في الواقع هو أكثر من إعجاب، إنني أحبها وأود أن أعرف رأيك قبل أن أتقدم لخطبتها بصفة رسمية.

فاجأني الموضوع وأسعدني في الوقت ذاته، فأنا أكنُّ لمصطفى معزة كبيرة. قلت.

- وهل حدثتها في الأمر.. أعني هل تعلم فاطمة بعاطفتك نحوها؟

- أجل، لا أخفيك إننا نتقابل.. أتمنى ألا يزعجك الأمر.. كان لابد أن أتأكد من مشاعرها نحوي قبل أن أقدم على أية خطوة.

- وما هو رأيها؟

- هي موافقة وتشاطرني الحلم نفسه. وحتى أكون صريحا معك أكثر فوالدتك كذلك موافقة.

- آه، أنا آخر من يعلم إذن، عرفت الآن سر حب أمي لك.

قال مبتسما وهو يحاول تبرير الموقف:

- كنت قد اتفقت مع فاطمة ألا نشيع الأمر قبل مناقشة أطروحتي، لكنني لم أستطع أن أكتم أكثر.

- كل ما يمكنني قوله هو مبروك.. لكن كنت أود أن أقوم بواجب الأخ الأكبر.

أحسست بنوع من العجز والإحباط، لاحظ مصطفى ذلك فربت على كتفي قائلاً:

- لا عليك، نحن إخوة ولن يتغير شيء قبل أن تجد عملا.

غادرنا المطعم فأصرّ مصطفى على اصطحابي إلى الجامعة للقيام ببعض الإجراءات الإدارية. وبينما نحن هناك، لا أدري كيف استطاع إقناعي، ودون عناء، بتسجيل موضوع لأطروحة قائلاً إن اشتغالي عليها لا يمنع من الاستمرار في البحث عن عمل.

بدا كما لو خطط لكل شيء مسبقا وبأدق التفاصيل.. كما لو أحس بأنه لم تعد لي الإرادة الكافية لاتخاذ قرارات مصيرية كهذه، فتكفل بشهامة الصديق المثالي بحسم الأمر.

لماذا لم أمانع اليوم بالذات؟

أهو وجود بسمة في حياتي وثقتها بي ما جعلني أستعيد بعضا من ثقتي في نفسي؟ أهي قراءتي لمسودة مصطفى التي جعلتني أغبطه، وأندم على السنتين اللتين ضاعتا هباء؟ أم لأنني كنت كغريق مدت له يد فالتقطها وهو مترع بالامتنان؟

أحيانا يحتاج المرء أن يسلم نفسه لمن يحسن تدبيرها.

17

- أتذكُرُ أولّ تجربة جنسية لك؟

رشقتني بسمة بهذا السؤال المباغت، ونحن ممدّدان على شراشف سرير ناعم بغرفة فندق جديد.

أجبت:

- نعم، أذكر جيدا، خاصة وأنها كانت قاسية على المراهق الذي كنته.

وضعت رأسها على صدري وقالت متوسلة:

- إحك لي من فضلك بالتفصيل الممل..

- كنت في السادسة عشرة من عمري، وكان يدرس معنا صديق من مدينة أزمور يدعى بوشعيب - نسبة للولي الصالح مولاي بوشعيب الردّا - دعانا، عزيز وأنا، لقضاء بضعة أيام من العطلة الصيفية في مدينته بمخيم عشوائي على الشاطئ. كنت سعيدا وأنا أكتشف هذه المدينة وبصمات البرتغال عليها ونسائها الملفوفات في الحايك، وعيونهن المشبعة بالكحل، وضفاف وادي أم الربيع..

طبعا كنا في السن التي نجرب فيها كل شيء - بالمناسبة بدأت التدخين في تلك الفترة، كما كانت أول كأس أرتشفها هناك

- ومرة عرض علينا بوشعيب أن نكتشف أحد بيوت الدعارة الموجودة على مقربة من ضريح الولي الصالح. كنت متوجسا وفي الوقت نفسه متشوقا لاكتشاف عالم كنت أتخيله مدهشا وبديعا.

دخلنا البيت، وكان مظلما ومتسخا تعلوه رائحة البخور كبيوت الشعوذة. لم أعرف كيف شدّتني من يدي امرأة في منتصف العمر أو أكثر، وزجت بي في غرفة صغيرة لا تتسع لأكثر من سرير. استلقت فوقه، أشعلت سيجارة، رفعت قميص نومها الشفاف إلى عنقها، أفرجت فخديها وقالت وهي تغمزني: «تعال أرني همتك يا الرويجل».

صُدمت وقلت لها في ارتباك شديد: لا، يبدو أنني أخطأت العنوان.

قالت بصرامة محترفة: «لا بد أن تفلح اليوم وإلا سخر منك زملاؤك العمر كله».

بقيت مسمرا أمامها أشيح ببصري عمّا بين فخديها. وإذا بها تطفئ سيجارتها وتنهض لتأخذ بزمام الأمور: نزعت ثيابي وأمسكت بعضوي الضامر تداعبه بكل الكلمات السوقية. أحسست بالغثيان وهي تحاول تقبيلي ورائحة «الحلبة» تفوح من جسدها الضخم. شعرت بأنني بين يدي الكاهنة الشريرة. وددت الهروب، ثم فكرت بأصدقائي الذين يمرون بالصراط نفسه وقلت في نفسي لا بد أن أفلح اليوم. حاولت أن أركز لكن عضوي رفض هذا الوضع السخيف وانزوى في ركنه بلا حول ولا قوة.

ما لبثت فطومة - هكذا نادت عليها إحدى صديقاتها من

الخارج لتستعجلها- أن اقتنعت أن لا أمل يُرتجى مني. أمرتني بارتداء ثيابي كمن يوبخ طفلا لم ينجز تمارينه المدرسية قائلة: «كونك خائبا لا يعفيك من أداء الثمن لقد ضيّعت وقتي».

أخرجتُ عشرة دراهم من جيب بنطلوني، وضعتها فوق السرير، ثم خرجت مهرولا. كان عزيز وبوشعيب بانتظاري بالباب يضحكان، وهما يصفان بالتفصيل إنجازاتهما الفحولية.

سألاني عن سبب تأخري. فأجبت، بالطبع، بأنني قد قضيت الغرض كما يليق برجل حقيقي، وأنا أقسم بداخلي أن لا أطأ أبداً مكانا من هذا النوع.

لم يكن هذا تصوري عن الجنس وممارسته. أحسست بإهانة كبيرة كمن تعرض لاغتصاب. كنت ساعتها أحب أحلام، ابنة الجيران، وأحلم بلقاء سحري مع جسدها، لكن فطومة أسقطت كل السحر الذي كنت أحلم به. ومن يومها، وأنا أكره فعل الحب بدون حب وأهرب من عالم الدعارة الخالي من كل إحساس ورومانسية.

ضحكت بسمة وهي تداعب شعر رأسي قائلة:

- ومن يومها وأنت تفضل الاستمناء.

- أجل، أفضل يدي على يدي فطومة.

قبلت يدي قائلة:

- وأنا أيضا.

- أنت ماذا؟

- أفضل يدك.

- لا ، لن أدعك تهربين من الحديث عن المرة الأولى بالنسبة إليك.

- دعها لوقت آخر، لقد تأخرت.

غادرت بسمة كعادتها قبلي، ومكثت أنا ملقى على ظهري فوق السرير، أحضن بلوعة الوسادة التي تحتفظ بعطرها.

18

قد أبدو لك إنسانة بلا ضمير، أو خائنة أو ربما عاهرة حتى..

أرجوك لا تقاطعني،

الحياة كانت عاهرة معي..

اغتصبت وأنا في السادسة من عمري على يد زوج أمي.

طفلة ينقصها حنان الأب كنت، وكان الأب المتاح قد استباحني باسم حبه لي.

ما كنت أعرف ساعتها الفرق بين الحب والجنس، ولا بين الرضا والاغتصاب.

كانت أمي تشتغل ممرضة بقسم المستعجلات ليلاً.. وكنت أحتل مكانها بالسرير.

كنت أخاف الظلام وأترك النور مضاءً في الغرفة. وبحجة عدم تبذير الكهرباء بذّر جسدي الصغير، وهو يوهمني أن ما يحصل بيننا هو مجرد حب بريء كحبه لأمي، وأنه يفعل معها الشيء نفسه، وأنه سرنا المشترك الذي لا يجب البوح به لأحد.

سرّ دمّر طفولتي وجعلني أهرب من نظرة والدتي، من لمستها.

كنت أحس في أعماقي بأن هناك شيئاً سيّئا دون تحديد ما هو السيئ فيه.

وعندما بلغت السن التي تفتّح فيها جسدي على الحب والحياة وأصبحت أعي ما فحوى هذه العلاقة امتنعت عنه، فهددني بأن يخبر أمي بكل شيء مؤكداً أن حقيقة كهذه قد تقتلها في التو. وأصبح علي أن أستمر خوفا من فقدانها وهو يعطيني كل ليلة حبة عرفت بعد وقت أنها كانت لمنع الحمل.

عندما أصبحت أتمرد وأهدده بالانتحار أو الهرب من البيت زوجني، أو بالأصح باعني، لرجل ثري يكبرني بثلاثين سنة.

لم أكن راضية طبعاً، لكن اغتصابي من مجهول أهون من الاغتصاب الذي يمارسه عليّ زوج أمي.

وهكذا استبدلت اغتصابا بآخر وخيانة بخيانات.

صمتت ليلى لتشعل سيجارة وأناملها ترتعش من التوتر وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع.

لم أكن أنتظر سماع بوح كهذا عندما طلبت مني على الهاتف أن نلتقي في أحد المقاهي لتحدثني في موضوع مهم، وأكدت عليّ ألا أخبر عزيز بالأمر.

ذُهلت ولم أُجب.

لم تنتبه لذهولي، استرسلت:

- لم ننجب أطفالا ولم أكن أرغب في ذلك لأنني لا أومن بقدسية الأمومة أو الأبوة.. لا أومن بالحب. وحدها المتعة تحركني. متعة أشتريها.. متعة مع رجال يصغرونني سنا. لا أتحمل الجنس مع من هم أكبر مني.. أرى فيهم شبح زوج أمي .

أتعلم؟ حاولت مرة الانتحار بعد زواجي وتم إنقاذي بأعجوبة. هذه التجربة جعلتني أقرر عَيْش الحياة حتى آخر رمق.. عانقت فلسفة المتعة دون أن أكترث بالآخرين. أين كان الآخرون يوم كانت طفولتي ترزح كل ليلة تحت ثقل لا يحتمل وكانت الأمومة عمياء؟

ارتشفت جرعة ماء وهي تكرر السؤال كمن يسائل العالم:

- أين كان الآخرون؟

سكبت في عيني نظرة فيها مرارة معتقة وتابعت:

- الموجع في الأمر أن زوج أمي توفي منذ عشر سنوات وما زالت أمي في حداد عليه، بينما يزداد كرهي له كل يوم أكثر.

الكراهية إحساس يقضمك عندما يكون من تكرهه حيّا يرزق.. لكن وهو ميت فأنت ميت في كراهيته وهو حي بكراهيتك.

لم أعد أحتمل حزن أمي عليه. أحياناً أقول لنفسي لا بد من مصارحتها بالأمر، لكنها مريضة ووهمها بحبه يساعدها على الحياة.. دعها تقضي بسلام ربما تعرف الحقيقة هناك في العالم الآخر.

جثم صمت ثقيل علينا، أثقل من أن نؤثثه بارتشاف قهوتنا التي أصبحت الآن باردة. وأنا أتساءل عن السر الكامن وراء اعتراف من هذا القبيل. نطقت كما لو قرأت أفكاري:

- قد تتساءل لماذا أحكي لك قصتي؟ لست أدري.. ربما كي لا تتسرع في الحكم عليّ خاصة وأنني أقصدك في خدمة.

قلت:

- مُري.

- عزيز صديق جميل وعشيق ممتاز لكنه أصبح يتصرف بغيرة زائدة عن الحد وأنا لا أحب الغيرة، لا أطيق حب التملك، وقد كنت واضحة معه منذ البداية. لقد أصبح يخيفني وأود أن تخبره بأن كل شيء بيننا قد انتهى.

صحت وأنا أستشعر صعوبة ما تطلبه مني:

- أفّ. ماذا تطلبين مني. هذه مهمة صعبة جدّا فعزيز يحبك بصدق.

- عزيز لم يحبني يوما، عزيز يريد أن يمتلكني، هو لا يفهم كيف ترفضه امرأة أكبر منه سنا. هو كمعظم الرجال الذين أغدقت عليهم الطبيعة نعمة الوسامة لا تدع لهم نرجسيتهم مكانا لحب آخر غير أنفسهم.

هو لا يحبني لكن يحب أن أحبه وهذا ما أنا غير قادرة عليه.

حزّ في نفسي عزيز فقلت بانفعال:

- أنت ترفضين حبه لأنك لا تحبين نفسك.. أنت تنتقمين من نفسك لا من الرجال .

أثارها ما قلته فعقبت بلهجة جامعة بين الحنق والتعالي:

- ربما لا أحب نفسي، لكنني مجبرة على تحملها كما أتحمل زوجي المقعد منذ أصيب بالشلل النصفي، كما أتحمل العالم بنظرته التي تطعنك بسوء الفهم. أحاول العيش بالطريقة

الأقل ألما هذا كل ما في الأمر. أفضل أن أتألم بسبب اختيار ذاتي لا بسبب ما فرض علي من خارج هذه الذات.

قلت في محاولة للدفاع عن عزيز مبرراً تصرفاته:

- لم يسبق لي أن رأيت عزيز في حالة من العشق كهذه. إنه يغار عليك كعيونه.

ضحكت بسخرية، وهي تقول:

- اسمعني جيدا: خبرتي بالرجال طويلة وأنا أصنفهم إلى نوعين: الرجل الزوج، وهو الذي خلق ليكون زوجا. والرجل العشيق وهو من خلق ليكون عشيقا. وعزيز من النوع الأخير. لهذا من المفروض أن يعلم أن لكل علاقة حب مدة صلاحية محددة ويتوقف عن محاولته لعب دور الزوج معي. ثم ماذا ينتظر؟

من الغباء انتظار الأشياء التي لن تأتي أبداً.

انسحبت ليلى بعد أن أفرغت ما في جعبتها من مرارة ونفضت يديها من عزيز.

مكثتُ في المقهى مذهولا. كنت كقاض لا يحسن عدم الانحياز. حائرا بين صداقتي لعزيز الذي أفقده الحب صوابه وبين ليلى التي قدمت لي كل الظروف التخفيفية التي تجعل منها ضحية لمجتمع الكبت والنفاق.

يا لذاكرة الكراهية إنها أقوى وأوفى من ذاكرة الحب.

19

بعد محاولاتي الفاشلة في الاتصال بعزيز، الذي بدا كما لو استغنى كليّا عن هاتفه المحمول، توجهت إلى الحانة المعهودة. وجدته هناك، جالسا بمفرده في المقصورة، أمامه ما يزيد على دزينة من قناني البيرة الفارغة.

ما إن لمحني حتى صرخ بأعلى عقيرته:

- بيرة لصديقي وحبيبي وبسرعة البرق إنه عطشان.

قلت مازحا:

- أصبحت تشرب لوحدك كالمدمنين، أم أنك في انتظار أحد؟

- أنتظر عزرائيل لنشرب نخب الأموات الذين ارتاحوا من وعثاء هذه الحياة العاهرة.

لم أعقب. فجوابه من النوع الذي يدل على أنه قد استقر في قاع حفرة معتمة.. فكيف له أن يرى النور؟

أقبلت ميمي لترحب بي، وبدأت تتحرش به بلمساتها الحانية المعتادة. غير أنه صدّها بفظاظة ظاهرة، فانصرفت بهدوء دون أن يصدر عنها أي تعليق.

التفتَ نحوي قائلاً بصوت خافت:

- تصور لقد أصبحت وفيّا رغما عني. الوفاء عندما تحب

ليس اختيارا ولا قناعة، بل حاجة ماسة كالإدمان.. لأنك فعلا تصبح مدمنا لنوع واحد من البشر. جسدك الشقي يرغمك على ذلك. بالمناسبة، كيف هي أحوال علاقتك ببسمة؟

لم أكن أتوقع سؤالا كهذا، خاصة أنني أحرص على احترام رغبة بسمة في عدم إذاعة أسرار حميميات علاقتنا لأحد، حتى وإن كان عزيز نفسه. فما كان مني إلا أن تملصت من الجواب قائلاً بكل ما استطعت من هدوء:

- إنها علاقة لا يمكنك استيعابها، ولا أريدك أن تجعلني مثار سخريتك.

أجاب بتفهم كبير وغير مألوف:

- يمكنني أن أتصور نوع العلاقة، وأحسدك عليها.. عجزت دائماً عن السقوط في غرام نساء أحببنني، وها أنا أحب من تحمل عاهة عاطفية مستديمة.. مبتورة القلب.

كيف لي أن أخبره بما دار بيني وبين ليلى، وأنا أراه محطما إلى هذا الحد؟ في محاولة مني للتقرب من الموضوع قلت:

- الحب من طرف واحد دمار لصاحبه، ثم ماذا تنتظر من ليلى؟

- ماذا ينتظر قيس زمن الدعارة من حب عاهرة.

- أرجوك لا تظلمها... إنها..

بتر كلامي في ما يشبه الحسم:

- وأنا أرجوك ألا تتدخل فأنت لا تعرفها.

بعصبية شديدة توجه نحو ميمي، التي كانت تذرو البسمات

من خلف الكونتوار، وأمرها بتغيير شريط الموسيقى الذي كانت تتراقص على أنغامه كل رؤوس وأجساد الحانة. وعندما احتج بعض المخمورين، نهض وهو يسحبني من يدي ويطلق الشتائم واللعنات صوب الجميع.

- تعال نغير المكان.

قلت بهدوء كبير:

- تعال ندخل بيوتنا، الوقت تأخر، وأنت شربت كثيرا.

حرر معصمي من قبضته بعنف موليا ظهره لي وهو يصرخ غاضبا:

- لا، لا حق لأي أحد أن يملي علي ما يجب أن أفعله. اذهب إلى الجحيم أنا جالس هنا.

تدخلت ميمي بحنان:

- دعه إنه غاضب هذه الأيام، هناك ما يزعجه. لا تخف سوف نهتم به.

قررت المغادرة بعد أن أيقنت من عدم جدوى الحديث معه الليلة.

عند اقترابي من باب الحانة، التفتت خلفي وألقيت نظرة على الأستاذ إدريس الرسام الذي كان يبدو مندمجا مع الأغنية دون أن يفرط في الرسم.

كانت أغنية للمطرب العراقي ناظم الغزالي: «أي شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي:..».

20

غادرت بسمة غرفة موعدنا على رؤوس الأصابع، بعد أن أحكمت علي شدّ الغطاء، تاركة جسدي في حالة استرخاء تام مثل رضيع أخذ قسطه من الحنان.

كان حنانا امتزجت فيه الأمومة بالصداقة بحب الأنثى التي تحيا حينما تعطي.. وكنت الرجل الطفل المدلّل.. حدّ الوجع.

أستعيد شريط هذا اللقاء بطقوسه السحرية، وأنا أسبح بين الحقيقة والخيال:

جئت بسمة متعبا بعد ليلة صارعتُ فيها وحوش الأرق، وخرجت منها منكس الأعلام كعادتي..

جئت بسمة كمن يزور ضريح وليّ صالح ليتمدد على حصيره.. يستجدي السكينة.

فإذا بها قد نثرت الشموع في الغرفة وفي كل أركان الحمام.

كان طست الحمام مملوءاً عن آخره بماء ساخن تعلوه رغوة الصابون، ينفث بخارا ينبعث منه عطر برائحة الخزامى يدغدغ الحواس.

أوضحت:

- إنها بعض الزيوت الطبيعية التي تساعد على الراحة والاسترخاء.

بدت ملامح الحيرة ترتسم على وجهي، فإذا بها تقول برقة آسرة:

- أرغب في أن أدلّلك، انزع ثيابك.. الماء في انتظارك.

لم أجرؤ على السؤال: لماذا؟ وكيف؟

نزعتُ ثيابي بطاعة المنذور للجنَّة، وانسللت إلى داخل الطست. تخففت بدورها من بعض ملابسها تاركة ملابسها الداخلية، وبدأت بغسل شعري بالشامبو بحركات بطيئة حانية وهي تمسّج فروة الرأس في صمت كأنها تؤدي طقوسا قدسية.. عقدت لمسات يديها لساني.. فأسلمتُ لها جسدي وروحي واستغنيت عن كل تفكير.

تناولت إسفنجة دعكتها بالصابون وبدأت تدلك وجهي، أذني، عنقي، صدري، ثم ظهري، بعد ذلك أومأت إلي بالوقوف ودلكت الساقين والفخذين..

وأنا كقطعة من الشمع بين يدي نحات ماهر لا يملك حتى ترف الانتشاء بلمسات صانعه.

بعد هذا أخذت الرشاش لتمطر ماء نظيفا على جسمي.. الظامئ في سره لرذاذ جسمها المحرم، بدءا من رأسي إلى أخمص قدميّ.

وأخيرا شرعت في تنشيف جلدي قطعة فقطعة بمنشفة لينة، مركزة على الثنايا دون أن تستثني فرجات الأصابع.

انتبهت لتورّد وجهها المتصبب عرقا.

دون أن تنظر إليّ، سحبتني من يدي نحو السرير، ونزعت الغطاء حتى اندسست تحته ثم أحكمته عليّ، قائلة:

- بالصحة.

كان لهذه اللفظة البسيطة معنى لا يدركه إلا رواد الجنة وأنا.

بعدها، انصرفت إلى الحمام لتختفي بعض الوقت. ثم عادت وقد ارتدت ملابسها بالكامل وجمعت في حقيبة لوازم الحمام.. قبل أن تغادر منبهة إياي بأن لا أخرج الآن تحاشيا لوعكة برد.

وعكة الحنان هاته..

تجعلك طريح الفراش.. عاجزا عن الحركة وقد شلت السعادة كافة قواك.

تتساءل هل سبق لأمك أن حمّمتك يوما؟ وهل سبق للماء أن أخذك بالأحضان؟

لم يكن استحماما، كان تطهيرا للحواس.. للمسام.. لخلايا الروح.. تطهيرا لماضيّ، لحاضري، ولأحلامي الآتية.

تعلمت من بسمة ألا أتساءل ولا أحاول فهم كل التصرفات البشرية.

ثمة تصرفات تصدر عنها بكل عفوية، لا يسعني إلا استقبالها والاستمتاع بها.

كتصرفات الطبيعة، قد تبدو لك أحياناً غير منطقية ليس لأنها كذلك، بل لأن منطقك الضيق غير قادر على استيعابها..

الأشياء الحقيقية كالحب، كالإيمان، لا تخضع لمنطق ولا تقبل تفسيرا.. إنها تُحَسُّ فقط.

ولقد علمتني بسمة معنى الإحساس بكل ذرات الكون التي تحيط بنا، علمتني الإنصات لنبض الحياة.. والتماهي مع الوجود.

علمتني أن هناك متعة كبيرة في الشغف بأشياء قد لا تحدث.. هناك لذة في انتظار ما قد يحدث.. ما هو وارد ومستبعد في آن كرذاذ الصيف.

علمتني أن ممارسة الجنس ليست فقط في المعاشرة الجنسية وحدها بل في كل ما يحيط بها.. ما يهيئ لها.. ما يدل عليها.. ما يجعلك مستثارا كما في أحلامك اللذيذة.

كهذا الطقس الذي أهدتني إياه.

طقس ينضح بالرغبة، بالمتعة، بالنشوة.. بفعل الجنس..

عندما نحب فكل حركاتنا وسكناتنا تستحيل ممارسة للجنس في أرقى تجلياته.

ما زلت ممددا على السرير، أتأرجح بين النوم واليقظة كمولود جديد، وقد بدأ الليل يتسلل من النافذة بهدوء، حين رن جرس هاتفي النقال.

كانت ليلى تتكلم بعصبية كبيرة وتتوسل إلي أن أوافيها من فوري إلى بوزنيقة.

لم أستوعب، فرددت:

- ليلى أرجوك إهدئي واشرحي لي: ما المشكلة؟

- إنه عزيز..

- ماذا به؟

- لقد هجم عليّ في الفيلا الليلة في حالة شديدة من السكر. وعندما أمرت بطرده، اعتصم أمام الباب مصرا على تشويهي أمام المدعوين. الليلة موعد الحفل السنوي لجمعيتي الخيرية.. أرجوك، أرجوك تصرف بسرعة.

- طيب، سأستقل القطار الآن.

- من فضلك لا تتأخر عني.

نهضت بصعوبة بالغة، وأنا ألعن عزيز السّكّير الذي أخرجني من خدري السحري.

21

كان منظر عزيز مثيرا للشفقة، وهو جالس على عتبة الباب وكل من الحارس والبستاني يقفان له بالمرصاد. أحدهما على يمينه، والآخر على يساره، كلاهما متأهب لكبح أدنى حركة قد تصدر عنه.

ما إن رآني حتى طفق صارخا:

- الآن تحتمي بك. لن يحميها مني حتى الجن الأسود.

قبضت على معصمه مخاطبا إياه:

- تعال يا صديقي، تعال نعُد إلى الدار البيضاء.. إنك متعب جدا.

سحب يده من يدي بقوة، وقد علا صوته أكثر:

- هي من بحثت عني، هي من أغوتني، لست أحد فساتينها تلبسه يوما وتستغني عنه في الغد. سوف أربيها، سوف أعلمها كيف تُحترَمُ الرجال.

قلت وقد بدأ الغضب يركبني:

- لا بد أن تحترم نفسك حتى يحترمك الآخرون.

- ابنة الكلب، إنها تدوس كرامتي.

- أنت من يدوس كرامته بنفسه. الكرامة ألاّ نتعلق بمن لا يحبنا.

نجحت بصعوبة في العودة به.

نام في القطار كطفل فقد والديه.

أكاد أراه بعد انفصال والديه عن بعضهما.. كم كان تعيسا والغيرة تنهش روحه الغضة، وأمه تعلن زواجها مباشرة بعد انتهاء فترة العدة. كنا وقتها في السنة الثالثة من التعليم الابتدائي. أذكر مليا يوم طلبت منا المدرسة أن نكتب نصّا في وصف الأم. لم يكتب عزيز شيئاً، وعندما سألته المدرِّسة عن عدم إنجازه للتمرين قال إن أمه قد ماتت.

أرى، الآن، الوجه الطفولي المتخلّى عنه يصبغه الحزن وأنا في حالة من الأسف والأسى لا توصف. الأسف عليه مما يكابد، والأسى من الحب الذي يرفعنا إلى درجة الملائكة كما يذلنا كحشرات وضيعة.

غيرة عزيز أصبحت تخيفني. إنها تتفاقم يوما بعد آخر، تغذي عنفه الذي لم يعد يقتصر على ليلى، بل تعداها ليشمل العالم. كل حركة بسيطة من عابر طريق أو من مخمور في حانة، وإن لم يكن هو المقصود مباشرة، يتخذها ذريعة لتفجير غضبه.. يركب عليها ليدوس بحوافره على كل من حوله. حتى أنا لم يعد يتحمل ممازحتي له.

عندما يكون الحب غير متبادل فهو قد يأخذ شكلا مرضيا، أو يستحيل كراهية سوداء.

لم يعد عزيز الذي نعرفه، المحبوب من لدن الجميع، الذي

يتقن الغواية، استبدلها بنوع من العنف وكأنه يسعى بكل ما أوتي من جهد لأن يكرهه الكل، حتى يجد لعنفه مبررا ويتمادى فيه.

عندما ننشغل بكره العالم نغض الطرف عن كل ما هو جميل واضعين القبيح تحت المجهر.

أنظر إليه، ولا أرى سوى شبحه. أين وسامته؟ أين أناقته؟ أين رعونة الطفولة فيه؟

أيمكن أن يجد عزيز متعة مازوشية في الانحدار إلى قعر اليأس؟

لقد تعدى المرحلة التي كان يبتز فيها ليلى. أصبح الآن يرفض نقودها رادّا بهذا نوعا من الاعتبار لنفسه. ساءت حالته المادية لدرجة بيع هداياها الثمينة لسد حاجته إلى الشرب.

قررت أن أنتظر ريثما يصحو من سكره لأكلّمه بجدية.

إنه بحاجة لمن يوقظه من هذيانه حتى يكف عن ربط كل شيء بشخصه، عن التأويل منطلقا من معطياته الذاتية. ساعتها سيدرك أن تصرفات ليلى، ليست مؤامرة ضده، وإنما انعكاس لطريقتها الخاصة في الحفاظ على نفسها، التي تجرعت الكثير من الألم.

أذكر كم عانيت عندما رفضتني أحلام، لكنني كنت دائماً أحاول أن أضع كرامتي فوق كل حب. لا بد أن نحب أنفسنا حتى نفرق كبشر بين الحب الإيجابي أو الصحي الذي يسعدنا وبين الحب السلبي أو المرضي الذي يدمرنا. ونتعلم كيف نغادر مسرح العواطف برأس مرفوعة حاملين جراحنا إلى أبعد جزيرة.. لنطببها في كبرياء .

22

انقطعت أخبار عزيز منذ أربعة أيام، كلما حاولت الاتصال به وجدت هاتفه المحمول مقفلاً. ذهبت إلى بيته دون جدوى. وأخيرا قررت أن أستعلم عنه في الحانة فربما أجد أخباره عند ميمي.

لمحتني ميمي وأنا أتخطى عتبة الباب، فجاءت مهرولة تسبقها إيقاعات جسدِها المكتنز.

سألتها عن عزيز، لكنها مثلي لا تعرف عنه أدنى خبر. هممت بالانصراف، فأصرت على دعوتي إلى قنينة بيرة، قائلة بنبرة أمل:

- قد يظهر عزيز بعد قليل.

ميمي كباقي رواد الحانة تتفاعل مع أغنية شعبية تنبعث من الشريط.

تقول كلماتها:

حَكْمَتْ عليها الظُّروف

تشرب لْكَاسْ وتَرْضِي لخواطر

مسكينة من الفقر والخوف

تَخْلق السعادة وتبقى هي بلا خاطر

وراه كاينا ظروف..

وراه كاينا ظروف..

تردد ميمي بأعلى صوتها ملوّحة برأسها يمينا ويسارا «وراه كاينا ظروف.. وراه كاينا ظروف..».

جلست إلى جانبي معلقة:

- أموت في هذه الأغنية ولو أنها تؤلمني.. إنها تحكي قصتي بالضبط.

قلت:

- لكل منا ظروفه يا ميمي.

ندت عنها تنهيدة من الأعماق، وعقبت:

- لا، هناك ظروف وظروف.

سألتها وقد أحسست رغبتها في البوح:

- ما هي ظروفك يا ميمي؟

تنهّدت وقالت:

- الله أعلم بحال هذه الدنيا. وصمتت

قلت لها: ما هي الظروف غير الظروف.

فسألت: هل ستصدّقني؟ أم تظن أني أجد المبررات لنفسي عبر اختلاق قصة كاذبة؟

قلت: أنا أعرف أي نوع من الناس أنت يا ميمي.

تنهدت ثانية قبل أن تبدأ في جرد آلامها، وأنا مائل إليها بسمعي بدون حراك:

«لم أكن دائماً ميمي التي هي أمامك. ولا حتى حلمت يوما أن أكونها.

كنت ميلودة في الأصل. ميلودة التي جاء بها والدها من البادية وهي طفلة بريئة في الحادية عشرة من عمرها لتشتغل كخادمة في أحد بيوت الدار البيضاء.

آه، كم قاست ميلودة وهي تتنقل من بيت إلى آخر.

كان والدي كلما وجد بيتا يدفع أكثر نقلني إليه. ظللت على هذه الحال مدة عشر سنوات. تزوجت بعدها بسائق كان يشتغل بنفس البيت الذي أشتغل فيه. أنجبنا طفلا وبدأنا نخطط لمستقبله متعاهدين على الإخلاص والتعاون. إلى أن ظهرت امرأة قال إنها تدبر لنا عقد عمل في إحدى دول الخليج.

كانت فرحتي عارمة، وأنا أعد نفسي للهجرة حالمة بغد أفضل.

أعطيته كل النقود التي وفرتها وأعطيته أساوري الذهبي، واستلفت مبلغا من صديقة لي. لكن النذل جرّدني من كل ما أملك وما لا أملك، وطار معها تاركا لي ورقة الطلاق.

بقيت مع طفلي، وأمي وأخي اللذين جاءا للعيش معي إثر وفاة والدي. وجدتني هكذا، مسؤولة عن إعالة أسرة بأكملها. الخدمة في البيوت لا تكفي. إنه استغلال على جميع المستويات. هنا على الأقل لا أحد أحسن من أحد. كل من يأتي إلى الحانة فللغرض نفسه: غسل الهموم بالشرب.

أعلم أنني متهمة، لكنني فهمت أن التهمة الكبرى بهذا البلد

السعيد، هي كوني امرأة مطلقة. فأذعنت للظروف التي قادتني إلى هنا..وراه كاينا ظروف.. وراه كاينا ظروف يا السّي أمين».

أشعلت سيجارة وقالت كمن تود أن تنهي حديثا مؤلما:

- دعنا من تقليب المواجع. ما خطب عزيز، لقد تغير كثيرا. يبدو أنه على علاقة مع برجوازية في سن أمه، لا أدري ما الذي يعجبهم في العجائز. آه، على «الزعطة» «زغبية» يا خويا.

تنهدت، أجبتها بتنهيدة داخلية وأنا أفكر ببسمة وأقول في خاطري: فعلا العشق متعب.

لمحت شبه دمعة عالقة بجفنها. طبطبت على كتفها في حنان قائلاً:

- كم هو كبير قلبك يا ميمي.. أعلم أنك تحبينه كثيرا.

- لا، بل أنا مجنونة به، لكن من هو في مثل ظروفي لا يحق له أن يحب، فالحب سيكون مجرّد عذاب زائد لا غير.

أحسست بشيء روحي غير قابل للتفسير يجعلني قريبا من معاناة ميمي، احترمت قدرتها على الابتسام في وجوه الجميع رغم المأساة التي تحيط بحياتها.

دخل الأستاذ إدريس الرسام واتجه إلى ركنه المعتاد. وقبل أن يطلب شيئاً جاءه النادل بقنينة نبيذ وملف أسود. ناوله الملف وصب له كأسا وانصرف. ارتشف رشفة وأخرج أوراقه وقلمه وانهمك في الرسم.

قلت لميمي:

- يحيرني غموض هذا الرجل.

قالت وهي تنهض بعجلة لتلبي نداء زبون يبدو أنه من أصحاب السلطة.

- كُلاّ وْهَمُّو أخُويا.

ظللت فترة أفكر بعزيز وبما سمعته من ميمي وأسترق النظر إلى الرسام، ثم وجدتني دون سابق قرار آخذِ قنينة البيرة وأتجه نحوه.

23

على مائدة فطور الصباح أمدتني والدتي بدعوتين من رشيد دريدر لحضور زفافه. واحدة باسمي والأخرى باسم عزيز، مما يؤكد أنه هو الآخر لم يتمكن من الاتصال به.

بدأ القلق يتغلغل في أوصالي. قررت أن أتصل بليلى لمعرفة إن كان قد حاول اقتحام بيتها مرة ثانية.

كانت مكالمتنا مقتضبة:

- ليلى، أنا أمين، صباح الخير، أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك.

- أهلا أمين، أنا في مراكش عند صديقي فرانسوا.

- أود معرفة إن كان عزيز قد اتصل بك لقد اختفى عن الأنظار وهاتفه لا يرد.

- عزيز؟ لا لم يتصل بي، وهذا أحسن، أظنه قد فهم، الله يهديه. دعه ربما يحتاج لبعض الوقت حتى يستوعب انفصالنا.

- أتمنى ذلك، قضّي أوقاتا طيبة. آه، من فضلك، لو اتصل بك أخبريني.

- حاضر سأفعل، وأنت لا تشغل بالك به إنه ليس طفلا. مع السلامة.

- مع ألف سلامة.

قطعت الخط وأنا أقول في نفسي لو كان طفلا لما احترنا في أمره إلى هذه الدرجة. لكن المشكلة أنه مجنون. للحظة، اجتاحني خوف بأن يكون قد عرف بسفرها إلى مراكش وتبعها إلى هناك. لكنني سرعان ما أزحت الفكرة من رأسي لعدم إقدامه على الاتصال بليلى.

تأبطت كتبي وتوجهت إلى مكتبة الأمير آل سعود لأشتغل قليلاً على أطروحتي.

الفضاء هادئ وجميل يبعث على التركيز. غمرني شوق كبير لبسمة التي سافرت لقضاء بضعة أيام مع أسرتها في إسبانيا.

يا الله، كم هو مهول وممض هذا الفراغ الذي خلفَته.

حاولت أن أركز في المراجع التي أمامي، لكن تفاصيل لقاء البارحة مع الأستاذ إدريس الرسام ومحاولاته الخاصة لتأثيث الفراغ ألحت علي. لا أعلم كيف وجدت الجرأة الكافية لأقتحم جدار عزلته قائلاً:

- أستسمحك، لاحظت أنك تجلس لوحدك دائماً في المكان نفسه. هل يمكن لي أن أجالسك قليلاً؟

قال دون أن يرفع عينيه عن البورتريه الذي يبدو كأنه انتهى من رسمه:

- أنا لست وحدي، ألا تلاحظ أنني بصحبة هذه المرأة؟

- عفوا، هل يمكن أن تقدمها لي؟

رفع البورتريه قبالة ناظري قائلاً:

- إليك السيدة بلقيس.

- تشرفنا وأنا أمين.

جلست بجانبه دون أن أنتظر إذنا منه، وبادرت قائلاً:

- إنها حقا جميلة لكن هذا الاسم ليس مغربيا، أليس كذلك؟

- فعلا، إن بلقيس عراقية.

أخذ الملف الذي كان بجانبه، فتحه، وإذا بعشرات البورتريهات كلها لبلقيس. تشبه بعضها البعض لحد التطابق وكأنها نسخ لبورتريه واحد: تقاسيم غادة عربية جميلة، أصابع يد تسند خدا مائلا على اليمين، ونظرة تقطر حنانا.

غريب أمر هذا الرجل، ترى، مَنْ هي هذه المرأة؟ لماذا هو محتاج لإعادة رسمها كل ليلة، يستحضرها من بعيد عبر الخطوط لتجالسه.. وكأنها نديمه الأوحد.

انتبهت إلى أنه يوقع كل البورتريهات باسم «دامو» ، قلت:

- هل دامو هو اسمك العائلي؟

- كلا، إنه الاسم الذي اختارته لي بلقيس. دامو. اسم جميل أليس كذلك؟ قالت إنه الإله الطفل الذي يمثل النسغ الصاعد والنازل في النباتات. كانت خبيرة بمدونة الأساطير السومرية.

شجعتني أجوبته على الاسترسال في طرح أسئلتي.

-هل تعرفت عليها بالعراق؟

-لا، لقد كانت تقيم في المغرب هي وأبناؤها وزوجها الذي جاء هاربا من نظام صدام حسين. وكنت أعطيها دروسا خصوصية في الرسم. كانت حقا موهوبة.

- الظاهر أنك تحبها.

- بل «أمُوتَنْ عليها» كما يقولون باللهجة العراقية.

تذكرت نزار قبانيْ وحبه لبلقيس والقصيدة الرائعة التي كتبها في رثائها. ها هو عاشق آخر لبلقيس ثانية يرسم لها بورتريهات كل ليلة لتظل حية أبداً بذاكرته. أغبط المبدعين على قدرتهم تحويل الوجع إلى طاقة خلاقة.

لم أجرؤ على سؤاله إن كانت حية أم ميتة لقناعتي الداخلية بأن «الموت وحده ما يجعل الحب أكثر حياة».

كأنه قرأ ما يجول بخاطري، فقال:

- بعد إعدام صدام حسين، رجعت إلى العراق مع زوجها الذي يطمع في منصب بالحكومة الجديدة. كلما سمعت قصفا أو ضحايا بنشرة الأخبار أموت خوفا عليها.

- هل أنتما على اتصال؟

- لا، وعليّ أن أعيش دون أن أعرف عنها شيئاً.

رجَّني ثقل هذا الحب الذي يحمله، فلم أستطع كبح سؤال:

- هل كانت تبادلك الحب؟

- ما أحبتني امرأة من قبل كما أحبتني هي.. بكل رقّة الشرق.. حب كما في الأساطير، لو خبرته فأنت هالك فيه وهالك دونه.

استرسل كما لو أنه يقاسمني معلومة مهمة:

- أتعلم؟ نحن لا نعرف كيف نحب، لا نملك فن الحب. أعني: ليست لنا ثقافة العشق بالمغرب. ثقافتنا ثقافة كتمان وتستر. نتكلم عن كل شيء إلا عما يشكل جوهرنا.. لا نبوح بعاطفة ولا نعبر عن رغباتنا.. لقد أخذنا من الغرب جفافه العاطفي. أما شعب العراق فهو خلق للعشق، للشجن، للنجوى..

- لماذا ترسمها هنا بالذات؟

- لا أدري، ربما أخاف لو أنني اختليت بها كل ليلة بالبيت أن أجن. «يصبح الحب في الشيخوخة، عندما نصادفه، أكيدا ونهائيا» على حد قول الكاتب كونديرا.

- ألهذا تترك الملف هنا بالحانة؟

- هذا يعطيني إحساسا بأنها تنتظرني كل مساء.. آتي، أستحضرها، أكلمها، أحكي لها تفاصيل يومي، أصف لها شوقي وأقول لها للمرة المليون «أمُوتَنْ عليك». أتمنى لها ليلة سعيدة، وأدعها تنام في المكان الوحيد الذي يعترف بالحب وبالقلوب المجروحة.

وهو يتكلم، تلبسني قشعريرة الخوف من فقدان بسمة.

فكرت أنني أخذت من وقتهما، هو وبلقيس، وخلوتهما الكثير. شكرت له ثقته وبوحه الجميل، وانصرفت وغصة تعقد حنجرتي.

انتبهت أن موعد إقفال المكتبة قد حان، وأنا ما زلت أفكر في دامو، شاردا عن كتب ومراجع لم أباشر فتحها بعد.

24

استقبلتنا جيوش من شموع متراصة على جانبي الطريق، وإيقاعات موسيقى «الخمسة وخمسين» عند مدخل الزنقة، ومصطفى وأنا نتقدم بخجل نحو بيت والد العروس بحي كاليفورنيا، حيث يقام حفل زفاف رشيد الذي أراد له أن يكون صفقة إشهارية مدويّة.

كيف لا؟ وهو من صاهر رئيسه في العمل، رجل الأعمال المعروف السيد فؤاد القباج، ودخل مجتمع الثراء من بابه الواسع.

يقف رشيد ووالداه وأم العروس ووالدها بباب الحديقة في صفين متقابلين. تحت مباركة الكاميرا، التي تؤبد اللحظات، وتدون كل من تخطى عتبة البيت من المدعوين.

لم أحضر حفل زفاف منذ كنت تلميذا بالثانوي. وقد كان عرسا لأحد أبناء عم والدي بالبادية. طبعاً، المقارنة غير ممكنة ولا مجال لها إطلاقا. لكنني ما زلت أتذكر بقوة كم كنت سعيدا بصحبة أطفال العائلة وشبابها بـ «دوار أولاد صالح»، ونحن نرقص مع الشيخات وسط الخيمة التي نصبت بباحة الدوار الواسعة، والنبيذ وماء الحياة يوزعان خِفيَة بين الشباب في أباريق الشاي، وكل من ثمل يُبعد عن أنظار والده خلسة، ويلقي به رفاقه المتواطئين في مطمورة القمح حتى يصحو من سكره. والنساء

يطبخن ويغنين ويطبلن بعيداً عن خيمة الرجال. وأصدقاء العريس ممن سبقوه إلى الزواج يختلون به بين الفينة والأخرى ليدعموه معنويًا ويسدون له النصائح ويشرحون له الطقوس للمرة الألف.. كيف يجب أن يبدأ هو بضرب العروس بـ«البلغة» قبل أن تسبقه هي وتُمَشّي كلمتها عليه. وكيف يجب أن يكون فحلا و.. و.. وكيف كنا نترقب جميعنا مع الفجر خروج سروال العروس الملطخ بالدم لتستقبله النسوة بالزغاريد وهن يرددن «الصْبَاحْ صْبَاحْ مَالِيهْ.. المَلْحَة والسّرْ عليه» «هكذا يْكُونُو بناتْ الرجال المَحْضِيَّة هكذا يْكونو بنات حَمْراتْ الشاشيَّة..» «دَّاها ودَّاها والله ما خلاَّها» ودموع الفرح تتلألأ في عيون أم العروس بينما يصافح والدها، بكل فخر واعتزاز، رجال القبيلة.

بقدر ما كنت سعيدا وأنا أكتشف هذا العالم الدافئ بما يعتمل داخله من فرح حقيقي، أعجز الآن عن الاندماج في فرح زائف، لا يعنى سوى بالمظاهر وما ستخلفه من انطباع لدى المدعوين، وما سيتناقلون من نميمة في جلساتهم الخاصة لأطول مدة ممكنة.

كان استعراضا على كل المستويات: استعراضا للمعارف والصداقات، استعراضا للفتيات اللواتي في سن الزواج، استعراضا للأزياء من كل الماركات المسجلة، استعراضا للمشروبات وللمأكولات بكل أنواعها في بوفيه يكفي لإطعام شعب بأكمله.. استعراضا للثروات بكل رموزها.

أما التنشيط فكان مهرجانا حقيقيا للموسيقى والفولكلور المغربي: الدقة المراكشية، مجموعة أحواش، واعبيدات الرمى،

مجموعة الشيخة البيضاوية وجوق الطرب الأندلسي وطبعا جوق بوطبول. ودي دجي للموسيقى الغربية.

كل هذا تحت إشراف طاقم من المصورين وكاميرات الفيديو، كما لو كنا داخل بلاتوه لتصوير فيلم وثائقي حول «العرس البرجوازي المغربي». أبطاله: العروسة التي تغير من حين لآخر بدلة تمثل منطقة من مناطق المغرب: القفطان الفاسي، اللبسة الأمازيغية، اللبسة الصحراوية.. لتنتقل بعد ذلك للزيين الهندي والباكستاني وغيره لتختم بالفستان الأبيض الفرنسي الذي جلب خصيصا من باريس.

والعريس، عليه طبعاً، أن يغير لباسه بحسب التعليمات الرشيدة للسيدة النكَافة.

أما مصطفى وأنا، فقد كنا نتنقل مندهشين وسط هذا الحشد الذي يكرس لدينا الإحساس بعدم الانتماء، وكأننا ممثلون صامتون جيء بهم فقط ككومبارس أو ديكور الفيلم.

أفكر كيف أن نشأة الإنسان تحدد مصيره، فيجد نفسه وهو لم يفتح بعد عينيه على الدنيا أمام مستقبل ثلثاه مرسومان مسبقا. زاده بعض إرادة وكومة أحلام.

قال مصطفى بنبرة مقنعة:

- بالمناسبة، لقد قررت أنا وأختك فاطمة أن لا نقيم عرسا ونكتفي بعشاء عائلي حميمي. وسوف نوفر مصاريف العرس لندفعها كدفعة أولى لشراء بيت صغير.

- يسعدني سماع هذا. فنحن على العموم لن نستطيع رد الدعوة لرشيد وعروسه.. بعد هذا الكرم الذي أغرقانا فيه.

ضحكنا معاً وقررنا أن ننسحب بهدوء، مع إدراكنا بأن أحداً لن ينتبه لمغادرتنا.

تذكرت ونحن نجتاز باب الحديقة أنني لم أسدد بعد لرشيد القرض الذي دفعته من أجل حصص التكوين.

25

عادت بسمة كهلال العيد.

غرفة الفندق تطل على البحر، تتربع وسطها بسمة كأميرة آتية من زمن سحيق، بفستانها الوردي الشفاف، وشعرها الحالك المتحرر من قيود الكون.

دخلتُ عليها كخفقة، وجثوت عند قدميها أقبل يديها بحرارة وبي رغبة في البكاء.

طلبت مني أن أجلس إلى جانبها، لكنني فضلت المكوث على الأرض. ناولتني مخدة، جلست فوقها وأسندت رأسي إلى ركبتيها.

آه، كم أحب حنان أصابعها وهي تداعب شعري..

كان لأناملها رعشة الرغبات غير المحققة، وكانت لي ثقة الأمل في تحقيقها. مكبلة وراء قضبان وفاء لزوج وفيّ لاستبداده، تضع، مثل سجين، في لمسة يد كل إحباطات الجسد وتطلعاته. تتمسك بحرمان ضروري لديمومة الحزن.. وأتمسك أنا بجراحها وبحرمانها لاستمرارية علاقتنا.

قلت مخاطبا إياها في لهفة:

- حدثيني عن سفرك إلى إسبانيا.

ردت بصوتها الهادئ الرخيم وكأن روحها العذبة تنساب من فمها:

- لقد حسدت الغجريات على هامش الحرية التي يتمتعن بها، على صخبهن الجميل وحبهن للطرب.. للرقص.. للرحيل.

أحببت شجن الفلامينكو، والإيقاعات العنيفة للأجساد وهي تدك الأرض دكّا كما لو كانت تدفن جراحها تحت التراب.. وترفع رأسا شامخة ككبرياء.

أحببت دفء الكراسي المتناثرة في الأزقة، الهاربة من جدران المقاهي وهي تفرد أذرعها لتحتضن كل عابر غريب.

أحببت أقداح البيرة الذهبية الضخمة التي ما إن تفرغ حتى تملأ من جديد. أحببت الفرح المنبعث من مطاعم «الطاباس»، وضجيج الحياة الذي يجعلك تستغني ما استطعت عن النوم.

وحده شوقي إليك كان يجتاحني كوخزات الإبر، ويجعلني أستعجل العودة.

صمتت قليلاً قبل أن تسترسل:

- على العموم كانت الرحلة موفقة لولا الموضوع الذي أنهكني به زوجي طوال الوقت محاولا إقناعي به.

- خيرا إن شاء الله.

- ليس خيرا بالنسبة لي، إنه موضوع يتعلق بالهجرة إلى كندا.

- ماذا؟

- هذا موضوع قديم كنا قد حسمناه منذ زمن ليس بالقصير، حيث اتخذ له شريكاً يهتم بفرع الشركة بمونريال، لكنه يقول إن شؤونه المالية لم تعد مرضية، وإن عليه أن يباشر أعماله بنفسه هناك.

ظللت برهة وأنا جامد أرقبها ولا أدري على أي محمل أحمل هذا الكلام. لاحظت الرعب في عينيّ فأضافت موضحة:

- لا تجزع، إلى حدود اللحظة أنا صامدة.. لا أتصور ابتعادي عن المغرب، عنك، وعن ليلى.. وجودي معه هناك لوحدنا سيقتلني حتما.

- وماذا بعد؟

- اقترحت عليه حلاّ وسطا: أبقى أنا والبنات هنا، وهو يقسّم وقته بين المغرب وكندا، خاصة وأن ابنتينا ترفضان فكرة المغادرة.

- وهل قبل باقتراحك؟

- لم أترك له خياراً آخر، قال سيجرب لمدة سنة ويرى إن كان الأمر مجديا.

قبّلت يديها وقلت متوسلاً:

- أرجوك يا بسمة لا تهاجري. دعي الهجرة لمن يعانون من مشاكل مادية، ومن انسدت الآفاق أمامهم، أما زوجك فهو ناجح هنا.

- أنت على حق، هذا ما قلته له بالحرف. ثم فوق هذا وذاك لا يمكنه إجباري على شيء لا أرضاه.

غادرتْ بسمة الفندق قبلي كالعادة. تبعتها دون مماطلة متوجها إلى بيت عزيز علّه يكونِ قد عاد من غيبته. كبست على جرس الباب مطولا، انتبه إلى وجودي حارس العمارة فجاء ليعلمني:

- السّي عزيز غير موجود لا شك أنه مسافر.

- ألا تعلم إلى أين؟

- لا، لم يقل لي. حتى صاحب البيت سأل عنه. كان من عادته عندما ينوي السفر أن يترك عندي واجب الكراء، ولكنه لم يفعل هذه المرة.

على أيٍّ، الغائب حجته معه.

وضعني عزيز في موقف حيرة لا أحسد عليه. كيف يتصرف هكذا تجاهي؟ هل لأنني وبخته ليلة تهجّم على ليلى ببيتها؟ فذاك من حرصي عليه. وأين يمكن أن يكون الآن؟

أيكون في مراكش؟ لا أظن، فليلى لا تعرف عنه أي خبر. أم تراه يكون قد تعرض لحادثة طارئ وهو الآن بالمستشفى؟ أو ربما تشاجر مع أحدهم وهو الآن بالسجن؟

كل سيناريوات الرعب بدأت تمرّ في ذهني. قررت أن أعرّج على الحانة آملا أن يكون قد اتصل بميمي.

26

هي ذي الحانة..

تستقبلك كحضن دافئ.. كثدي عطوف.. بصخبها الجميل وجلبة مرتاديها. أصبحت أفهم أن ما يبحث عنه روادها ليس الشرب أساسا، بقدر ما هو هذا الكرم العاطفي الذي يصبغ المكان. وهذا الإحساس بالتواطؤ والانتماء الذي يجعلك تُعبّر عن عواطفك بدون خجل. لأنك لو بكيت، فستجد حتما من يبكي معك. ولو ضحكت، فسترتفع القهقهات من حولك. الكل متعاطف مع الكل.. تعاطف من يوحدهم الألم.

ميمي وراء الكونتوار تدندن مع أغنية لمحمد عبد الوهاب:

«بفكّر في اللّي ناسيني، وبنسى اللي فاكرني، وبهرب مللي شاريني ودوّر عاللّي بايعني.. عاللّي بايعني..»

ما إن لمحتني حتى توجهت إلي متلهفة بالسؤال:

-أهلا أمين هل لديك خبر عن عزيز؟

- لا، للأسف. كنت في بيته قبل قليل، حتى حارس العمارة لا يعرف عنه شيئاً، أنا خائف أن يكون قد أصابه مكروه؟

- لا قدر الله.

تناولت قنينة بيرة. فتحتها قائلة:

- اسمع، خذ لك بيرة سأتصل بالسّي علال الكوميسير لمعرفة إن كان محتجزا لدى الشرطة.

- حسنا تفعلين.. وكذلك قسم المستعجلات لو كان لديك معارف هناك.

- أجل لديّ.

التفتت نحو ركن الأستاذ إدريس. رفع هامته عن أوراقه، وأشار إليّ بالاقتراب للجلوس معه. كانت بي رغبة في الحديث إلى أحد له تجربة واسعة في الحياة. شيء ما يشدني لهذا الرجل بقوة.. أحس بأنني بدأت أحبه.

قلت له:

- سعيد برؤيتك.

- وأنا كذلك، ما خطبك أيها الشاب؟

- صديقي عزيز تعرفه طبعاً..

- نعم عزيز «البوكَوص» ما به؟ لاحظت أنه لم يعد يرتاد الحانة كعادته.

- لقد اختفى.

- كيف؟

حكيت له قصة عزيز مع ليلى بتفاصيلها. أصغى إليّ بتركيز عال رغم حالة السكر التي كانت جلية على ملامحه، ثم عقّب:

- أحياناً يهرب الإنسان من نفسه، لا تقلق سيظهر عندما يطبب جروحه مثل بعض حيوانات الغاب الكاسرة التي تعاود

الظهور بعد أن تلعق جراحها. هو لا يتحمل أن تستغني عنه امرأة.. الإنسان منا يحب أن يحس بأنه ضروري لحياة الآخرين .

أخذ رشفة من كأس النبيذ، وأضاف موضحاً نظريته الخاصة بلسان ثقيل وأنا أصغي إليه كمريد أمام شيخه:

- أتعلم؟ من خلال علاقتنا بالزمن يمكن معرفة مدى ارتباطنا بالآخر..

الزمن يمتد ويتقلص بامتداد وتقلص عواطفنا.

عندما يكبر شوقنا للحبيب تصبح الثواني لا نهائية.. وعندما نتعم بقربه ندخل في سباق مع عقارب الساعة.

ومن هنا جاء مصطلح «أَنْقَصّرو» بلغتنا العامية ليعني أننا مهما قضينا من وقت معاً فهو سيبدو لنا قصيرا.

يمكن معرفة إن كانت العلاقة قد دخلت مرحلة الفتور عندما نبدأ في سماع أو سرد مبررات من قبيل: «لم يكن لدي وقت فقد كنت مشغولا..»، أو «لقاؤنا سيكون قصيرا لذا يستحسن تأجيله..»، وغيرها من الإشارات العابرة التي لو انتبهنا إليها في أوانها لوفرنا على أنفسنا الكثير من الخيبات.

ليس أسوأ من حب يحتضر ونحن نمارس عليه كل أشكال الإنعاش، لأن النتيجة الحتمية ستكون الموت السريري لعاطفة سامية لا يمكن أن تحتفظ بها ذاكرتنا إلا إذا هي أسلمت النفس على عرش الكرامة والجمال.

الحب الحقيقي لا يعرقل شغلنا بل على النقيض من هذا،

يمنحنا طاقة إضافية وينمي مردوديتنا. ولهذا عندما يبدأ الشغل في الشكوى من حب يعرقله يجدر بهذا الحب أن ينسحب بكبرياء، قبل أن تمحو النهايات القبيحة جمال البدايات.

بديع ما قاله الأستاذ إدريس، لكنني أشك في قدرة الإنسان دائماً على الحسم. قلت:

- من الصعب أن يتحكم الإنسان في عاطفته.

رد قائلاً وكأنه ينهل انطلاقا من تجربة عاشها:

- وصعب أن يدوس على كرامته أيضا.. لم يوجد الحب ليؤثث الفراغات بل ليملأ الفضاء كالهواء.

- أنت عاشق ميئوس منه.

- نعم، لكن لو كان فراق بلقيس مثلاً من اختيارها أو لو كان حبي لها غير متبادل لما ظللت أعيش على ذكراها. يقيني بأنني حاضر معها هناك كما هي حاضرة معي هنا. هذا ما يغذي هذا الحب ويجعله يخفق باستمرار.

ولج باب الحانة شخص بدين تقدم بثقة من لا يعيبه جيبه، ما إن رأته ميمي حتى أشارت إلى إحدى الفتيات أن تتقدم نحوه بجسارة من لا تعيبها ابتسامتها. جلسا معاً في ركن مظلم..

كلاهما القناص وكلاهما الطريدة.

جاءتني ميمي ببيرة أخرى قائلة:

- هذا نخب الفرحة. عزيز لا يوجد لا بأقبية الشرطة، ولا هو مسجل بأقسام المستعجلات.

تريثت قليلاً قبل أن تواصل في شبه خيبة متجهة صوب الكونتوار:

- إنني لا أستبعد أن يكون الآن عند إحدى عشيقاته غارقا في العسل ونحن نموت قلقا عليه.

تمنيت في سري أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لاختفائه.

شربت نخب الأوهام. وقبل أن أنصرف سألت الأستاذ إدريس إن كان يرسم أشياء أخرى غير بورتريهات بلقيس. ابتسم وأخذ ورقة كتب عليها عنوانا وناولني إياها قائلاً.

- أنتظرك غداً بعد الظهر بهذا العنوان، هناك ستجد الجواب على سؤالك.

ثم أضاف:

- لا أعلم لماذا أفعل هذا معك أنت بالضبط؟

اخترق أوصالي شعور دافئ، حرت جوابا فاكتفيت بنظرة امتنان واستأذنته تاركا إياه مع بلقيس، وأنا أكبح بقوة رغبتي في البوح له بقصتي مع بسمة.

27

عمارة قديمة بحي المعارف لا يوجد فيها مصعد.

صعدت السلالم مباشرة إلى السطح فوق الطابق الرابع كما أشار إلي بذلك الأستاذ إدريس.

سطح ينقسم إلى نصفين، النصف الأول تملأه حبال لنشر الغسيل يفصله عن النصف الثاني باب حديد. طرقت طرقتين على صدر الباب، وإذا بالأستاذ إدريس يظهر مبتسما.

- مرحباً أمين تفضل إلى خرابي الملون.

كان خرابه الذي يشمل نصف السطح مغطى برقعة كبيرة من الزنك تقيه من الشمس والمطر. تتوسطه طاولة كبيرة نثرت فوقها فراشٍ وعلب صباغة ولوحة بيضاء يبدو أنه لم يجرؤ بعد على افتضاض بكارتها. يكتظ المكان بلوحات هنا وهناك، الواحدة فوق الأخرى، معظمها بلا إطار.

ثم ردهة صغيرة تفضي إلى غرفة ضيقة كغرف الغسيل تراكمت فيها لوحات أخرى، بجانب سرير عتيق أو ما شابه ذلك.

وقفت أتأمل فوضاه، بينما شرع هو في تجهيز القهوة في إبريق من الطراز القديم فوق أنبوبة غاز صغيرة.

قال وهو يلمح سؤالا يتردد في عيني:

- إنني أقطن بشقة الطابق الثالث لكنها لا تتسع لاحتضان مرسم، لذا طلبت من مالك البيت أن أكتري نصف السطح.

- هل تعيش لوحدك؟

- أجل، فهمت منذ بداية علاقتي بالمرأة أنني لا أصلح للزواج.

ثم استطرد موضحاً:

- كان دائماً بوسع مخيلتي أن تحول أي امرأة عادية إلى إلهة للعشق، سرعان ما أزهد فيها. مشكلتي الحقيقية كوني أمنح أكثر مما ترغب أي امرأة في الحصول عليه، كما لو أنني غير واع أن قيمة الأشياء ليست في وفرتها وإنما في ندرتها. لاحظ أنني أقترف نفس الأخطاء مع لوحاتي.

ثم أضاف مازحا:

- بعد قليل ستطردني لوحاتي خارجا، أو ربما أهلك تحتها يوما كما وقع للجاحظ مع كتبه.

فقفز مني سؤال كبداهة:

- لماذا لا تقيم معرضا للوحاتك وتبيعها؟

أجاب مباشرة ودون تفكير:

- لأنني لا أبيع لوحاتي. إنها قطعة مني وأحسّ بأن في بيعها خيانة لي ولها.

- ما هذه المثالية العظمى؟ معقول؟ أم أنك تؤمن بالفن لأجل الفن؟

بدأت أقلب مجموعة من اللوحات المسندة إلى الحائط واحدة تلو الأخرى. أحسست بأنفاسي تضيق من فرط الانفعالات القوية التي أرسلتها هذه اللوحات إلى كياني بأكمله.. لوحات مدمّرة تنز شعرا، تستنفر لديك أحاسيس متناقضة: حزن وفرح في الآن ذاته، قلق وسكينة دفعة واحدة.

توقفت فجأة. صفعة الجمال تصيبك بالدوار. أشعلت سيجارة. همهمت:

- يا الله ما هذه الموهبة؟

سمعني فردّ ساخراً:

- يسأل الفنان غير الناجح نفسه: ما الذي ينقصه؟ الموهبة أم الطموح؟ ويتمنى في قرارة نفسه أن ينقصه الطموح.

- عندما نملك موهبة كهذه يكون من الأنانية عدم تقاسمها مع البشرية. الموهبة ليست ملكا فرديا لأحد. تصور لو قررت أم كلثوم أن تكتفي بالغناء لنفسها ببيتها بالصعيد، وأحمد رامي يقرأ قصائده لنفسه؟ لا، لست أوافقك تماماً.

- هي وجهة نظرك وأنا أحترمها، سأستودعك سرّا: كادت بلقيس تنجح في إقناعي بعرض لوحاتي، لكن رحيلها وضع حدّا لتردداتي.

ثم تمتم كأنه يحادث نفسه:

- معها كدت أصدق أن الحياة ليست عبثا.

عدت لتفحص اللوحات، فإذا بواحدة تشدني إليها بقوة،

وضعتها فوق كرسي وأخذت أحوم حولها متأملاً تفاصيلها من كل زوايا النظر. كانت تمثل كوة وسط حائط رمادي ينسرب منها ضوء صاف ليرتطم بكرسي شاغر أو هذا ما خيل لي حينها.. ضوء يخترقك كبصيص أمل وسط الظلام.

شيء بها يشبهني وكأنها صورتي على مرآة التشكيل.

لا أعلم كم من الوقت قضيت في تأملها، وهو صامت متحاشيا إزعاجي. انتظر حتى التفتّ نحوه، فقال لي:

- إنها لك.

- ماذا؟

- اللوحة. يكفي أن أرى كيف تنظر إليها لأحس بأنك قد سقطت في حبها، يسعدني أن أهديك إياها.

كلن يصبّ القهوة في كأسين للشاي مختلفين عن بعضهما وكأن كل واحد منهما يشهد على سلالة انقرضت.

أحسست بقيمة هديته، فقلت محرجا:

- شكراً لك ولكن لا يسعني قبولها، على الأقل الآن، عليك أن تحتفظ بلوحاتك، كل لوحاتك، لمعرض مقبل. لا بد أن أقنعك بهذا وإلا فلست أهلا لأكون صديقا لك. ثم لا بد أن تحقق لبلقيس رغبتها في ذلك.

بدا متأثرا وأنا ألقي باسم بلقيس بين اللوحات. ناولني كأس القهوة، وهو يقول مشيرا لكرسي قديم:

- أجلس هنا أمامي سأحكي لك قصة.

بدأ الكلام وقد ارتسمت على ملامحه سحنة من الجدية.

«كان ياما كان في زمننا الحديث رسامة في عز شبابها، اندهش أستاذها لموهبتها الساطعة وبدأ يعرض لوحاتها التي لقيت نجاحا كبيرا. وهكذا أصبحت بين ليلة وضحاها مشهورة وغنية تتنقل في سيارة فخمة وتسكن بيتا فخماً.

لم تكن تشتغل كثيرا، كانت تختلي مع لوحاتها كلما أحست بالرغبة في ذلك، تاركة إحساسها يقود فرشاتها دون اعتبار لأي شيء آخر. إلى أن زار يوما، أحد معارضها، شخص خشن، لباسه يشي بقلة ذوق، قليل الكلام، سليط اللسان، يحسب له الفنانون والصحافيون ألف حساب. قيل عنه إنه ناقد كبير. بعد أن ألقى نظرة على أعمالها والصحافيون حوله ينتظرون أن يصرح بشيء، وكاميرات التلفزيون تسلط عليه الضوء، قال بكل برود وعجرفة: «ينقصها العمق». نقلت الصحف حكمه كما يُنقل حكم بالإعدام. بعد هذا الحكم وبعد ما قيل عنها، صارت وفنانتنا الموهوبة كلما خلت بلوحة أصيبت بالإحباط من فرط بحثها عن العمق الذي قال الناقد الكبير إنها تفتقر إليه.

ما هو هذا العمق الذي ينقصها؟ وكيف تصل إليه؟

فقدت عفويتها وأصيبت بحالة اكتئاب، أصبحت تبحث في الكحول والمخدرات عن إشراقات توصلها للعمق المنشود، فيما هي تنحدر يوما بعد يوم إلى أعماق الضياع.

لم تعد قادرة على الرسم وساءت حالتها المادية. طالبتها البنوك بتسديد القروض التي اشترت بها البيت، وبدأت مسلسل

التخلص من كل ما هو كمالي حتى لم تعد تملك سوى السؤال الذي يصبغ حياتها بالسواد «كيف تصل إلى العمق في لوحاتها».

وأخيرا، صعدت سطح عمارة عالية وألقت بنفسها في عمق الفراغ.

وبينما هي جثة هامدة تغوص في دمائها على الأرض، والناس من حولها، والصحافيون الذين يوجدون كقدر في مثل هذه الحوادث. مر الناقد الكبير صدفة من هناك. سأل عما جرى. قيل له إن الفنانة فلانة قد انتحرت.

قال ببرود وعجرفة: «ألم أقل لكم ينقصها عمق».

قلت وقد أنهى قصته ونظر إلي منتظرا رد فعلي:

- أنت تخاف النقاد إذن.

- أنا لا أخافهم. بل لا أفهم كيف يأتي شخص، لا يعرف حتى الأبجديات الأولية للألوان ولا أمسكت أصابعه يوما فرشاة، ليصدر أحكاما فضفاضة بصدد عمل سكبتَ فيه من روحك ومن دمك، عمل هو كل حياتك. ويبدأ في شرح وتحليل ما تعجز أنت نفسك عن شرحه. كيف يسمح الفنانون بهذا؟ أنا لا أومن بالنقد في الفن.

كيف تضع نقطة تقويمية على صرخة قلب؟.. الصرخة نسمعها.. نتفاعل معها.. ولو استطعنا نرد عليها بصرخة أخرى، لا أقل ولا أكثر.

- أنت لن تعرض أعمالك للنقاد، ويمكنك تجاهلهم كليّا.

أنت ستعرض لمحبي الفن ممن ستخترقهم صرختك. أرجوك لا تدع النقاد يمنعونك من التواصل مع من يتعطشون للفن الحقيقي لأنك فنان حقيقي.

ضحك قائلاً:

- أنت طيب جدّا، لا تعرف أنك لو تجاهلتهم فهم لن يتجاهلوك، لأنهم يقتاتون من دمك. ثم لا أريد أن أكون دمية بين يدي أصحاب قاعات العرض والمتاجرين بصرخاتنا.

قلت برعونة:

- لكن بإمكانك أن تصبح ثريّا بين ليلة وضحاها، تقود سيارة من نوع كاط كاط وتدخن سيجارا كوبيا كجيل الفنانين التشكيليين الجدد.

- نعم، يمكنني أن أربح الكثير من المال لكن لوحاتي ستصبح فقيرة، لأنني سأبدأ في الرسم تحت الطلب للفنادق والمؤسسات الخاصة كما يفعل البعض، وليس ثمة أسوأ من الإبداع تحت الطلب بالنسبة للمبدع.. إنه يقتل عفويته وصدقه في العمل.

أدركت أنني لن أستطيع إقناعه اليوم، لكن ربما أفلح في لقاء قادم، ولو أنني أشك في ذلك، فهو من طينة أصيلة في طور الانقراض ما دام الربح لا يدخل ضمن حساباته.

قمت لأستأذن. أخذ اللوحة التي أحببتها ووضعها بين ذراعي.

شكرته قائلاً:

- سوف أعلقها في البطين الأيمن من قلبي.

رد ضاحكا:

- أفضّل الأيسر، لأنه هو الذي يضخ الدم في باقي الجسم.

- حسنا، الأيسر إذن.

28

طَرْقات عنيفة على باب بيتنا.

نهضت فزعا، المنبه قرب السرير يشير إلى الساعة الخامسة صباحا.

صوت أمي وهي تصرخ وتولول يغطي على صوت آذان الفجر.

قفزت قفزة واحدة لأجد نفسي في بهو البيت أمام ثلاثة من رجال الشرطة. ما إن ظهرت في مواجهتهم حتى صاح بي أحدهم:

- هل أنت أمين العبادي؟ صديق عزيز البوكَوص؟

- نعم؟ ما الأمر؟

أمي تصرخ:

- ابني لم يفعل شيئاً، ابني بريء..

أمسك الشرطي بذراع والدتي قائلاً:

- من فضلك سيدتي هدئي من روعك قليلاً ودعينا نتكلم.

فاطمة تخرج من غرفتها يتبعها شقيقاي التوأمان في ذعر شديد.

أمرني شرطي آخر:

– البس ثيابك بسرعة، وتعال معنا إلى مخفر الشرطة.

– ماذا حدث لعزيز؟

– لقد قتل عشيقته ليلى وسلّم نفسه.

زوبعة تلفني، أحسست بالغثيان وقدماي لا تقويان على حملي.

سؤال يدوي في داخلي: «لماذا يا عزيز؟ لماذا؟ لماذا؟».

يخرجني الشرطي من ذهولي ليستعجلني ويضع حدا لكل سؤال محتمل:

– من فضلك لا وقت لدينا ستعرف كل شيء في المخفر.

أحاول أن أرتدي ثيابي، لكن رعشة تلبسني وأنا أحاول أن أضبط نفسي

أمام أمي التي تبعتني وهي تلطم فخذيها.

– قلبي لم يرتح يوما لهذه الرفقة..

– أرجوكِ أمي لا تستبقي الأحداث.

وأنا في سيارة الشرطة، يمر أمامي شريط الوقائع بكل وضوح منذ لقائي الأول بليلى إلى الآن. وأسئلة بلا ضفاف تتضارب في داخلي؟ كيف؟ ولماذا؟ لماذا؟

حاولت أن أستفسر الأمر من أحد رجال الشرطة. فقال إن عزيز قد اتصل بهم عند الساعة التاسعة ليلا ليبلغ عن جريمة قتل. وعندما وصلوا إلى العنوان الذي دلّهم إليه بشاطئ بوزنيقة وجدوه ينتحب بجانب الجثة الغارقة في دمائها. وسلاح الجريمة ملقى على

الأرض. كان ثملا، اعترف بكل شيء منذ البداية. قال إنه تسلل إلى بيتها من الشرفة التي تطل على الشاطئ وداهمها بغرفة نومها وهي تستعد للخروج. حاول أن يتحدث معها لكنها أهانته وطلبت منه أن ينصرف حالا وإلا طلبت الحراس ليلقوا به على الرصيف. ثم تسارعت الأحداث على نحو هذياني، ولم يعِ إلا وهو يطعنها بالسكين في صدرها طعنات متتالية.

سألت الشرطي عن حالته قال:

- كمن يتخبط في كابوس لن يستيقظ منه أبداً.

وأضاف في أسف واضح:

- يا خسارة شبابه لقد جنى على نفسه. أتعلم ما هي عقوبة جريمة القتل مع سبق الإصرار والترصد؟

- من قال إنه سبق إصرار وترصد؟ أهو؟

- حتى وإن لم يقل، كيف يبرر وجود سلاح أبيض في حوزته؟

- عزيز ليس مجرما.

أكدت مقتنعا. فنهرني قائلاً:

- كفاك دفاعا عنه. شباب مستهتر، لم تعد لديكم حدود، وسّختم البلاد، كنا نحارب دعارة النساء وإذا بالرجال ينافسونهن.. يحطم حياته من أجل امرأة في سن أمه، لماذا برأيك؟

كدت أجيب: «إنه يحبها»

لكنني أطرقت صامتا.

أحسّ بوجع شديد وأسف لا حدّ له على عزيز وليلى..

فجأة، تذكرت بسمة وصداقتها الحميمة لليلى. كيف نسيت علاقتهما التي كانت السبب في معرفتي ببسمة؟ أحسست بخوف شديد عليها. وتراءت لي المصيبة أعظم.

يا إلهي، هل عرفت بسمة بالأمر؟ وكيف ستتلقى هذه الفاجعة؟ وهل ستداهم الشرطة بيتها كما فعلت معي؟ وهل ستحقق معها كذلك بصفتها صديقة الضحية أم لا؟

في مواقف كهذه يعمل العقل البشري بسرعة بديهة عالية وبذكاء ثاقب. يصبح الإنسان عمليّا، يستنفر كل غرائزه البدائية للدفاع عن كينونته كحيوان أحس بالخطر.

يتوارى القلب تاركا الصدارة للعقل، وإن كان هو الذي يحركه في نهاية المطاف.

وصلنا المخفر. أدخلوني إلى مكتب مفتش الشرطة، الذي نزل علي كردم بأسئلة لا عدّ لها حول علاقتي بعزيز ومعرفتي بليلى وهل أخبرني عزيز بنيته في قتل ليلى أو لمح لأمر من هذا القبيل في إحدى المرات؟.. وهل؟.. وهل؟..

كنت أجيب عن أسئلته بجمل مقتضبة متمنيا ألا تأتي سيرة بسمة في التحقيق. لخوفي من الارتباك. وإن كنت عازما على نكران كل معرفة بها حرصا عليها.

بعد مضي ما يناهز الساعتين أفرج عني دون السماح لي برؤية عزيز مع التأكيد عليّ بعدم مغادرة الدار البيضاء.

وجدت مصطفى وفاطمة بمعيّة أمي، التي لم تكف عن البكاء، أمام باب المخفر.

ونحن في الطريق إلى البيت، طلبت من مصطفى أن يتركني في الحديقة العمومية.

أحسست باختناق، يلزمني أكثر من فضاء وسماوات أخرى.

حاولت أمي أن تمانع، لكنني كنت مصرّا على موقفي فلا قدرة لي على تحمل تحقيقات أخرى في البيت. اقترح مصطفى أن أنتظر حتى يقلهما إلى البيت ليبقى معي لكنني أقنعته بالذهاب إلى عمله وبحاجتي للبقاء مع نفسي قليلاً.

ارتميت على أول كرسي أفكر في هذا الزلزال الذي رجّني من الأعماق.

كيف تكفي لحظة وجيزة، كزفرة، لينهار كل شيء من حولك وتتحول من محب للحياة لسالب لها يا عزيز؟

شعرة دقيقة تفصل بين الملاك والوحش الرابضين في دواخلنا.

ليتهم تركوني أراه. أريد أن أفهم منه هو، لو كان يفهم شيئاً. أريد أن أسمعه، أحتاج أن أسمعه.

أقتلها لأنه عجز عن قتل حبها بداخله؟ أقتلها ليتحرر منها؟ أقتلها ليعاقبها أم ليعاقب نفسه التي ضعفت أمامها أكثر مما ينبغي؟

أريد أن أفهم..

هل يمكن للمرء أن يحب دون أن يحتضر قليلاً؟

وكيف يمكننا أن نقيّم شيئاً قبل أن ينتهي؟

أريد أن أفهم.

29

حصل لي المحامي الذي أسندت له ميمي مهمة الدفاع عن عزيز على إذن لزيارته.

وصلت السجن مرددا في نفسي:

«ما أحبَّ أحدٌ الحرية مثلك يا عزيز».

بيننا قضبان وحولنا ضجيج.. ونحن عيون عالقة ببعضها تحاول أن تنطق بشيء ما تمهيدا لفك عقدة الألسن.

ابتسم لي بوجه شاحب قائلاً:

- أمين اشتقت إليك. شكراً على زيارتك، ومعذرة على كل ما سببت لك من مشاكل.

قلت وأنا أداري غصة في الحلق:

- كفى، كيف تعتذر لصديق. أعرف أنني سأقلب عليك المواجع وربما ليست لك رغبة في ذلك الآن، لكنني أود أن أسمع منك ما حصل بالضبط، الشرطة لها تأويلاتها ولا أحد يفهمك مثلي.

لم يتردد وكأنه هو الآخر كان يحتاج أن يقاسمه صديق ثقل حادث موجع

- عندما اختفيت كنت أتجسس عليها، قتلني الشك في أن

لها عشيقا آخر، تبعتها إلى مراكش وحاولت مرة أن أدخل رياض فرانسوا، لكن الحارس الذي كان قد استلطفني في المرة التي صاحبتها هناك، نصحني بألاّ أفعل، لأنهم تلقوا أوامر مشددة بطردي بالقوة إن اقتضى الحال، وقد يطلبون الشرطة. ثم إنهم أصحاب نفوذ.

رأيتها لعدة مرات تخرج بصحبة عشيقها، وهو شاب في مثل سننا أو أقل. تذكرت أنه سبق لي أن رأيته برياض شهرزاد المرة الأولى..

كلما رأيتهما معاً أحسست بقهر لا يتصور مثل عاهرة لا تصلح لأكثر من لحظة متعة.

صمت قليلاً كمن يرتب تسلسل الأحداث بذهنه، ثم استرسل قائلاً:

- كان برفقتها ببوزنيقة عشية الحادث، انتظرت على أحر من الجمر ما يناهز الساعتين وأكثر أن ينصرف لأتفاهم معها. كنت أريد فقط أن أفهم لماذا تعاملني بهذه القسوة؟ وما هو هذا الشيء الذي يمنحه لها هو ولا أستطيع منحها إياه؟ وهل هو ذنب أن أحبها؟

كنت أريد أن أقول لها إنني مستعد أن أسترجع علاقتنا السابقة بالشروط الأولى التي وضعتها وأن أكبح عاطفتي.

تصور أنه رغم كل ما فعلته بي ظللت أحبها، أدمنها، أدمن الجنس معها.. كنت في أشدّ الحاجة لها.

تسللتُ من الشرفة إلى غرفة نومها، وجدتها تتأهب للعودة إلى الدار البيضاء.

وفوضى غرفة نومها تشي بما كانت منهمكة فيه خلال ساعات انتظاري.. الشراشف على الأرض ورائحة الجنس تخنقني، لم أكن أعلم أن للجنس رائحة تخنق من يعاني من الخيانة. شيء مضحك أن أتكلم عن الخيانة، أليس كذلك؟ ما علينا، عوض أن أغضب منها أحسست برغبة عارمة في أحتضانها وممارسة الجنس معها. لكنها صدتني بقوة وكانت في منتهى القسوة. أهانتني، نعتتني بالحقير وعديم الكرامة.

قلت لها إن هذا «البرهوش» الذي خرج من عندها لا يمكنه أن يحبها مثلي ولا أن يمتعها مثلي. دافعت عنه بقوة واستماتة.

ليتها لم تفعل.

استفزتني. وجدتني أنقض عليها، وأنزع ثيابها بالقوة. صفعتني، وصرخت منادية الحارس.

لا أذكر كيف فار دمي في لحظة من جنون فهجمت على السكين الذي كان على الطاولة قرب صحن الفواكه، وطعنتها في صدرها مرة ثم مرة ومرات لم أعد أعرف عددها، وأنا أصرخ بهستيرية:

إذا لم تكوني لي فلن تكوني لأحد.. لن تكوني لأحد..».

صمت وهو يضع رأسه بين كفيه. قلت كمن اكتشف حقيقة مهمة:

- قلتَ إن السكين كان موجودا على الطاولة، يعني أنت لم تحضره معك بنية قتلها؟

- لا أنكر أنني تمنيت قتلها مرات عديدة، لكنني والله جئت في محاولة أخيرة لإقناعها بالرجوع إلي.. كنت مستعدا لمسامحتها ونسيان كل ما فعلته بي.

- قال لي أحد رجال الشرطة إن السكين كان بحوزتك.

- ربما كان استنتاجا منه أمام اعترافي بقتلها.

- يجب أن توضح هذا للمحامي. لأن عدم ثبوت تهمة «سبق الإصرار والترصد» تمتعك أثناء الحكم بظروف التخفيف.

قال في يأس شديد:

- ما همّني الآن، ما همّني..

صرخت به:

- يجب ألا تستسلم، طبعاً ارتكبت جريمة، لكن تحت وطأة ظرف نفسي قاهر، ولا يجب أن تكون العقوبة أكبر مما تستحق. المحامي سيقوم باللازم.. بالتأكيد.

- أرجو أن تشكر ميمي كثيرا، نيابة عني، على شهامتها. نفقات المحامي ستثقل كاهلها.

هممت أن أخبره بما أجابت ميمي حين شكرتها على ما تتحمله من تكاليف الدفاع. قالت: «إن لم يكلفك الحب شيئاً فلا قيمة له». لكنني صرفت النظر عن ذلك وقلت مطمئنا إياه:

- دعك من هذا، سنتدبر الأمر جميعا.

نظر إلي وأنا أنطق «جميعا» ليسألني:

- هل رأيت بسمة؟

- لا. لم أحاول الاتصال بها. أظن أن من الأفضل أن ننتظر حتى تهدأ الأمور.

- عندك حق. على أيٍّ، أنا لم أشر إليها لا من قريب ولا من بعيد أثناء التحقيق وكأنني لا أعرفها، لكنهم استجوبوها بصفتها الصديقة المقربة لليلى، وطبعاً هي أنكرت أنها تعرفني.

أعلن أحد الحراس عن نهاية المدة المحددة للزيارات، وبدأ الزوار يغادرون، والسجناء يعودون إلى زنازينهم.

ونحن نهم بتوديع بعضنا قال عزيز كمن تذكر شيئاً مهما:

- زوج ليلى طلب أن يراني، جاؤوا به على كرسي متحرك. رجل مسن جدّا يعاني من شلل نصفي. اكتفى بالنظر إلي مطولا ثم انصرف.. لم أستطع أن أحدد معنى لنظراته.

استعجله الحارس فاتجه نحو الداخل وهو يودعني بنظرة تقول في حسرة:

«كثيرا ما تكبلنا الحياة بمآس لا نستطيع التخلص منها إلا بمزيد من المآسي».

30

لا أحد يعلم ما يدبره المرء في لياليه المقهورة».

قالها الأستاذ إدريس في محاولة للتخفيف عني.

التجأت إليه بعد مغادرتي السجن. كان يقضمني السؤال: هل كان بوسعي أن أفعل شيئاً كي أمنع عزيز من اقتراف جريمته؟

أغرق قطعتي سكر في قهوته، وهو يقول مبررا:

- أنا ممنوع من السكر والملح، لكن الأطباء لا يفقهون أن الحياة أفضل عندما يكون لها مذاق.

قبل أن يضيف بلهجة مُرّة:

- كثيرا ما عذبني هذا السؤال عندما ارتكب صديق لي جريمة ضد نفسه. لزمتني سنوات طويلة حتى أفهم أن قرارات من هذا النوع تسقط كقدر لا يملك بشر مثلنا أن يغيّره. القرار أقوى من صاحبه ومنا، لأنه ليس وليد اللحظة.. هو تراكم يدخل فيه كل معيشنا وعقدنا وجراحنا التي لم تلتئم.. هو فقط نقطة أفاضت الكأس. لا تقف عند النقطة يا صديقي، فالكأس كانت مملوءة قبل أن تصادفها.

جالسا كطفل صغير أمام معلمه أنصت للأستاذ إدريس، ارتشف كلماته التي تبلل لظى ينهش الأحشاء، وهو يحكي قصة صديقه أحمد.

في السن التي يتقاعد فيها آخرون عن العمل، عن الحب، عن الحلم، قرر أحمد أن يحقق حلمه المؤجل منذ أزيد من نصف قرن، وهو يتسلق سلالم الانتظارات: انتظار أن ينهي دراسته، انتظار أن يشتغل، انتظار أن يتزوج، انتظار أن يمتلك بيتا، انتظار أن يكبر الأبناء، انتظار أن ينهوا دراستهم، انتظار أن يتخلص من القروض التي كبلته بها البنوك ثم انتظار أن تسمح الظروف بذلك.. دون تحديد لمعنى الظروف.

أحيل على التقاعد وفرغ البيت إلا منه ومن زوجته التي تقضي مُجمل أوقاتها كنحلة، تتنقل بين بيوت أبنائهما ملبية احتياجات الأحفاد بعد أن لم يعد له هو احتياجات خاصة.

حينها فكر أن بإمكانه أن يبدأ العيش من أجل نفسه فقط، من أجل حلمه الصبور.. مقتنعا بأن الأحلام لا عمر لها.

لكن كيف يواجه أسرته بحلمه؟

كيف يجرؤ على التفكير، في مثل سنه هو الذي لم تتخط قدماه حدود المغرب، في السفر إلى الهند. ليس لضرورة قصوى ولا حتى لمنفعة عامة، بل فقط: لأن بطل الفيلم الهندي الذي شاهده ذات عيد مع عمه العربي وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشرة من عمره، كان يغني ويراقص حبيبته أمام مبنى أسطوري قال عنه عمه إنه من عجائب الدنيا السبع وإنه قصر يدعى «تاج محل».

كانت أول مرة يرتاد فيها قاعة سينمائية كأنه يرتاد حلما في ليل ساحر.

كل شيء فيه منسجم الصورة، الصوت، الأحاسيس التي تتسرب إليه وتعزف على أول أوتار المراهقة الحساسة.

من يومها والحب وكل السحر المنبثق منه مرتبط بمشهد واحد: رقصة عاشقين أمام قصر«تاج محل».

أسرّ، وهو في الخامسة عشرة من عمره، لأحد أصدقائه بحلمه فضحك منه وَصمَه بالرومانسية والعاطفية أكثر من اللازم، وهذه صفات في تقدير المراهق الساذج مناقضة للرجولة. ومن ذلك الحين، وهو يطمر حلمه داخل تربة أعماقه ويشاهد الأفلام الهندية في سرية مطلقة لدرجة أصبح معها يفهم اللغة ويحفظ الأغاني.

عرف من خلال قراءاته، السرية كذلك، أن «تاج محل» لم يكن قصرا بمعنى الكلمة بل ضريحا للزوجة الثانية «ممتاز محل» للإمبراطور شاه جهان الذي لفرط حزنه على وفاتها ابيض شعر رأسه في ليلة واحدة وشيّد لها أعظم دليل على حبه، استغرق في بنائه سبعة عشر عاما، مخلدا بذلك «أروع دمعة أبدية على خد الزمن»..

كيف لا يجسّد لديه هذا المكان أسمى وأروع ما صنعه الإنسان بالحب وما صنعه الحب بالإنسان؟

الحب الذي ما صادفه يوما خارج عتمة قاعات السينما. هو الذي عاش كل الانفعالات عبر شاشة تفتح له نافذة للتيه ليلج كل الدهاليز المستترة. يعيش كل مرة قصة حب جديدة يتكئ عليها كعكاز ضرير لعبور الحياة.

كان يعيش بشخصيتين: واحدة يعرفها الجميع، وأخرى لا يعرفها سوى هو والقاعات المظلمة. شخصية واقعية منذورة لحياته الأسرية والعملية، وأخرى مقصورة على حياته العاطفية والانفعالية.. ولم تكن تعنيه معرفة أيٍّ منهما الحقيقية.

ما عرفت الدموع لعيونه طريقا ولا هزّته النشوة من جذوره خارج قاعات السينما، بل وخارج الهند، مسرح قصصه العاطفية.

فكيف يغادر هذه الدنيا دون أن يحج إلى محراب الحب؟ هل سينتظر أن تكبّله الشيخوخة الزاحفة نحوه كأخطبوط؟ هل سينتظر موته الأكيد، مكفنا في حسرته طالبا رضا أبنائه الذين لا شيء يرضيهم؟

وأخيرا، وبعد ترددات كثيرة استدعى كلاً من زوجته وأبنائه لاجتماع طارئ، وأعلن لهم قراره مؤكداً أنه لا ينتظر من أحد الإدلاء برأيه.. فهذا قرار لا رجعة فيه.

لم ينبس أحد بكلمة، تبادلوا نظرات تحمل قرارات مضادة، وانصرفوا.

بعد مضي أيام قلائل، وقد جهز نفسه للسفر، طلب مني أن أصاحبه إلى المصرف لاستلام تعب السنين، لكنه فوجئ بكون أبنائه قد رفعوا عليه قضية حجر تجرده من حقه في التصرف بأمواله وممتلكاته.

انهارت قواه وسقط طريح الصدمة. أخذته معي إلى بيتي. أمضى أياما فاقدا الوعي وأنا أعتني به قبل أن يطفو شيئاً فشيئاً إلى سطح الحياة، وهو يقول لي:

«الوظيفة استعباد، الزواج استعباد، والأبوة استعباد. كلهم يأسرونك في شرك ضيق يسلبونك حريتك وأحلامك شيئاً فشيئاً. وعندما تظن أنك قد بلغت السن التي تمنحك شرعية التحرر من كل هذه القيود قبل أن تأسرك الشيخوخة بوهنها. يأتي ابنك الذي ضحيت من أجل أن يدرس في الخارج ويحقق ما حرمت أنت من تحقيقه، ليحاكمك على جريمة الحلم في مثل سنك، مع أنه عاش في أوروبا وتبنى الكثير من الأفكار الحديثة، وطبعا أعجب بالعجزة هناك الذين وإن تقاعدوا عن العمل فهم لا يتقاعدون عن الحياة، بل يتهافتون على السفر واكتشاف العالم مستمتعين بوقت ثمين أصبح ملكا لهم.

ولكن هذا مجتمع آخر وأولئك آباء لآخرين».

وذات صباح، استيقظت لأجد فراش أحمد فارغا. ظننت في البداية أنه قد خرج ليغير الجو أو ليبتاع خبز الفطور لكن غاب النهار وما عاد أحمد.

خرجت لأبحث عنه وقد لعب القلق بأفكاري. وبينما أنا مار من أمام قاعة سينما «النور» وجدت حشدا من الناس أمام الباب. سألت أحد المتحلقين عما حصل. فأجابني بأن إحدى المضيفات قد عثرت على جثة رجل بين الصفوف بعد أن غادر القاعة كل المتفرجين. يبدو أنه من الزبناء الأوفياء المعتادين على مشاهدة الأفلام الهندية. وقد نُقلت الجثة لقسم الطب الجنائي في المستشفى المركزي مع علب المهدئات التي كانت في حوزتها قصد التأكد من سبب الوفاة والتعرف على صاحبها.

طبعا لا داعي لأن أقول لك من هو صاحبها».

هكذا هو الأستاذ إدريس، يمرر إليك المعنى مغلفا بحكاية تعفيك من كل تعليق..

فتزداد اقتناعا بأن لا شيء مضمونا في هذه الحياة.. ولا الحياة نفسها.

31

تسللت داخل الفندق بحذر شديد، تحقيقات رجال الشرطة تجعلك تشك حتى بثيابك وإن كنت بريئا. كسارق اتجهت نحو الغرفة، كان الباب مواربا، دفعته بلطف بيد، وأنا أحمل بالأخرى لوحة الفنان إدريس التي أهداني إياها.

منذ مدة وأنا أود أن أهدي بسمة شيئاً غير عادي، شيئاً أحبه ويليق بها، لم أجد أحسن من لوحة لفنان استثنائي.. لوحة تشبهني كما لو كانت صدى لصرخة مكتومة في الأحشاء.

هناك أشياء قد تبدو بسيطة وعابرة لمانحها، لكنها تظل كوشم محفور في قلب من تلقاها. هكذا ستظل اللوحة بالنسبة إلي.. هدية تجسد العطاء في أسمى تجلياته. سأظل أحتفظ بها في البطين الأيسر كما وعدت الأستاذ إدريس.. أليست بسمة قلبي النابض بداخلي؟

آه كم أموت شوقا إليها!

جمدنا لقاءاتنا منذ ما يزيد على شهرين وحتى المكالمات الهاتفية تحاشيناها لأسباب أمنية كذلك. كم كنت سعيدا وأنا أتوصل بالأمس برسالة منها على هاتفي النقال تحدد لي موعدنا هذا.

بسمة ليست في الغرفة. بحثت عنها في الحمام وعلى الشرفة دون أن أجد لها أثرا.

لفت انتباهي ظرف كبير على السرير، وضعت اللوحة على الطاولة وجلست وقد بدأ القلق يستوطنني، فتحت الظرف: به رسالة من بسمة وظرف آخر موجه لشخص آخر. فتحت الرسالة وأناملي ترتعش ودقات قلبي تكاد تصم آذاني.

حبيبي، أمين الأسرار،

أعتذر إن كنت قد اتخذت هذا القرار بعجالة دون أن أخبرك. فموت ليلى المأسوي، وتحقيقات الشرطة معي، وفضول الناس من حولي، وخبث البعض منهم. كل هذا جعلني في موقع ضعف أمام زوجي الذي حسم الأمر ولم يسعني إلا أن أذعن لقدر يصرّ على تدميري.

عندما ستقرأ هذه الرسالة سأكون على متن الطائرة، أطفو بين السحاب، نحو كندا بلد الثلج والصقيع.

لا أحب الوداع، ولا أريد لذاكرة حبنا أن تحتفظ بغير اللقاء.

لن أقوى على نظرة الحزن بعينيك، وأنا أبحث عن كلمات لا تسعف في مثل هذه المواقف.

أفضل أن لا أودعك.. ليظل الإحساس بوجودك معي حيًا، وقويًا كما هو.

أرحل ممتلئة بك وحاملة بين الضلوع جرحا نزيفه لا ينضب.. اسمه ليلى.

ما أقسى فراق ليلى علي.

نحن لم نتحدث عنها خلال لقاءاتنا لأننا كنا منشغلين بأنفسنا عن العالم.

لكنها هي كانت تعرف كل شيء عن علاقتنا، التي وإن كان يستعصي عليها فهمها، فقد كانت تباركها كما تبارك أم سعادة ابنتها..

كانت الأم، والأخت، والصديقة بالنسبة إلي. كانت أطيب إنسان اهتديت إليه في حياتي المعتمة.

لملمتْ هشيم روحها من تحت الأنقاض، ورفعت رأسا مثقلة بوجع الذكرى، وقررت بكل شجاعة أن تعيش. لم تكن تحيا، لأن الحياة تتطلب أن نستسلم للحب وهي حاربته بكل قواها كي لا تعرف لحظة ضعف.. كي لا يستغل أحد عواطفها. انغمست في متع تستبدل جوعا بآخر موهمة نفسها أنها بهذا تمتلك مصيرها بيدها.

أعلم أنني سأفاجئك بقول إن ليلى التي خافت الحب وكأنها تعلم أنه قاتلها، أحبّت عزيز بكل جوارحها.

كان عزيز أول رجل جعل قلبها يخفق، وهذا ما أخل بتوازن هش حاولت الحفاظ عليه بصعوبة طوال أيام عمرها الهجين.

باحت لي بهذا وهي تجهش ألما لفراقه.

أحست بضعف شديد تجاهه منذ لقاءاتهما الأولى ولم

تتحمل. عملت على دفعه لكرهها بشتى الوسائل. قدمت له في البداية عشيقات أخريات لتوهم نفسها بأنها لا تهتم.

حتى سفرها معه إلى مراكش عند فرانسوا لم يكن سوى محاولة يائسة منها لجعله يبتعد عنها. لكن تشبثه بها، الذي أصبح يكبر يوما بعد يوم، جعلها تخاف أكثر. كانت تحس بالاختناق كلما أعرب لها عن حبه.

نصحتها بأن تستسلم للحب ولو لمرة في حياتها. كانت تقول: «دعي الحب للذين يؤمنون به». أدركت ساعتها أن الرعب الناتج عن عقدها أقوى من كل حب.

أما عن سفرها الثاني إلى فرانسوا فقد قررته عندما علمت أنه يتجسس عليها. أرادت أن تدفعه عمدا للحقد عليها. وكان العشيق الآخر المزيف مجرد وسيلة للتحرر من حب عزيز.

ها هي، الآن، قد تحررت من الحياة برمتها.

كانت لفرط خوفها من الألم تحتمي من الحب بالمتعة، رافضة أن ترى فيها غير ابتسامتها الساطعة. بيد أن للمتعة، كما للحب، مخالب قد تخدشنا.. قد توجعنا.. قد تدمينا.. وقد تفتك بنا ذات جرعة زائدة.

وكقدر ساخر كان عزيز حبها وجرعتها الزائدة.

أريدك أن تعلم أنني لست حاقدة عليه ولو أنه حرمني من أعز أحبابي. كيف أحقد على ميت، إنه بقتلها قد قتل نفسه. وإن كانت هي قد ارتاحت من حياة لم تكن كريمة معها فهو قد حكم على نفسه بعذاب مؤبد.

الأشياء ليست دائماً كما تتراءى لنا.. وللحقيقة وجوه وأقنعة.

غابة هي الحقيقة وكلٌ منا لا يرى سوى شجرة واحدة.

التقينا في الزمن الخطأ يا حبيبي.

ليتني عرفتك في زمن آخر وفي ظروف أخرى.

ليت الحب كان أقلّ تعقيدا على هذه الأرض.

ليت القدر يستريح.

أتساءل أحيانا: هل لنا فعلا الحياة التي نستحق؟

أظننا جميعا نستحق الأحسن..

بالمناسبة، خذ الظرف الذي يصاحب الرسالة إلى السيد علي الشرقاوي، مدير المعهد العالي للتكوين، لتتسلم تعيينك في المعهد. يمكنك الآن الاشتغال على أطروحتك في ظروف جيدة.

ويمكنني الرحيل وأنا مطمئنة على مستقبلك.

معك عرفت معنى هذا السيل الهادر في جسدي الذي يدعى الحياة.

لقد تحدث كثيرون عن موتي بعد وفاة ولدي، وكانوا على حق. ولكنك وحدك أنعشتني وأثبتت لي أنني ما زلت حية.. حبك أعادني إليّ، وأنا شديدة التمسك بك.

يكفي أن أعلم أن في هذا العالم إنسانا يحبني، ويصون ذكراي.

أما أنا فسوف أعيش على ذكراك.

كن سعيدا ما استطعت.

بسمة»

خرجت أجر الخطى لا أدري إلى أين..

أحضن لوحة أخلفت موعدها مع بسمة..

بجيبي رسالة وداع.. وتوصية شغل.

صدر للكاتبة

* «إيماءات»: (شعر) - دار الثقافة - الدار البيضاء 2002.

* مجموعة قصائد من ديوان «ورق عاشق» صدرت ضمن حقيبة فنية للفنان أحمد جاريد تحمل نفس العنوان - محترف الحفر الحكيم بناني- 2003

* «ورق عاشق» (شعر) - دار الثقافة - الدار البيضاء 2003

* «الإسعافات الأولية للطفل» (طب الأطفال) - دار الثقافة - الدار البيضاء 2005.

* «تعال نُمطر»: (شعر) - دار شرقيات - القاهرة 2006

* «أي سواد تخفي يا قوس قزح» : (شعر) باللغتين العربية والفرنسية، الترجمة الفرنسية لعبد الرحمان طنكول - منشورات مرسم - الرباط 2006.

* «حروف وألوان» (حقيبة فنية) عمل مشترك- منشورات مرسم- الرباط 2006.

* «لحظات لا غير»: (رواية)- المركز الثقافي العربي- بيروت 2007.

* «ورق عاشق» (Feuillets passionnés) شعر الطبعة الثانية باللغتين العربية والفرنسية، الترجمة الفرنسية لثريا إقبال-

منشورات مرسم- الرباط 2008

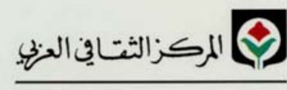
* «آخر الطريق أوّله» (شعر) - المركز الثقافي العربي - بيروت 2008

فاتحة مرشيد

مخالب المتعة

جاءت فاتحة مرشيد إلى الرواية من الشعر، ولذلك فهي تسرد بلغة جميلة محمّلة بالمعاني القويّة. وكما في مجمل أعمالها تغرف من الحياة، ومن ظواهر مجتمعها، حتى كأنها تكتب لتقول أشياء أبعد من الرواية والشعر.

إن أبطال فاتحة مرشيد متطرفون لأنها تريدهم أن يعبّروا بالحد الأقصى من المشاعر. فهي تريد لكتابتها أن تكون صراخاً وصمتاً في آن، وأن يدرك القارئ أن الصمت هو الوجه الآخر للصراخ.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-355-7
9 789953 683553

لوحة الغلاف: جورج شميلك